الدكتور

نوري جعفر

علي ومناوئوه

مؤسسة الأعلمي
بيروت - لبنان

شبكة الفكر
alfeker.net

مصورات
مكتبة الصدوق

علي ومناوئوه

الدكتور
نوري جعفر

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة ومسجلة

الطبعة الثانية

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مؤسسة الوفاء

المكتب : بئر العبد - مقابل مدرسة قصر الثقافة - بناية كتاب وبرجاوي
المستودع : المريجة - شارع البلدية - ملك دياب .
هاتف : ٣٨٦٨٦٨
ص.ب : ١٤٥٧ - بيروت .

مقدمة
الاستاذ عبد الهادي مسعود

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان من واجبي أن أعترف على نفسي بالتقصير أو القصور ، إذ كتبت ترجمات عديدة عن شخصيات أوروبية أو اجنبية ولم أتمكن من الكتابة عن عظماء التاريخ الإسلامي ، وعلى رأس هؤلاء الإمام عليٌّ عليه السلام .

ولم يكن بدٌّ ـ كما يحدث غالباً ـ أن ألقي بظلال هذا العتاب على الظروف والملابسات التي مرت ولا تزال تمر بي لأدفع عن نفسي هذا القصور والتقصير أمام جمهور أحبه كل الحب ـ بل احبه إلى حد العشق ـ وهو جمهور القارئين في الأقطار العربية والإسلامية الشقيقة .

وتقدم إليَّ الأستاذ مرتضى الرضوي لأكتب مقدمة لكتاب الدكتور نوري جعفر : « عليٌّ ومناوئوه » ، وكان ذلك في منتصف شهر شعبان ١٣٩٤ هـ الموافق أواخر الشهر الثامن أغسطس ١٩٧٤ م ، فقلت ما لنا ومناوئيه ولست منهم ولا شك أيها القارىء الكريم ، كما وأنني لست منهم على التحقيق ، ولقد أقبل الموسم القضائي ـ أيها الصديق المرتضى ـ ولنا فيه معارك على ساحة مجلس الدولة ، مما قد يشغلنا عن كثير مما يتوجب بذل الجهد والوقت فيه من قضايا الفكر والعقيدة والإيمان .

كنت أتوق إلى الكتابة عن الإمام علي بن أبي طالب ـ منذ أمد بعيد ـ وهو أول فتى في الاسلام وفارس فرسانه ، وكنت ولا زلت أتوق لأن تكون الكتابة عنه تمهيداً لي وتمهيداً للقراء أن أكتب عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

والكتابة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كتابة عن الإيمان وكتابة عن الحكم الإسلامي في ظل الايمان ، وكتابة عن الإسلامية الصحيحة ، ودفاع عن

المسلمين على مرّ العصور ، من حضر منهم في عهد عليٍّ عليه السلام ، ومن حضر بعده أو قبله ، منذ نزلت الرسالة على رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلم .

كان عليٌّ أن أنتظر سانح فرصة . . لأسجل بعض ما خطر في ذهني عن هذا الرجل العظيم .

وكان عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام كما ورد في « الإصابة » : «قد اشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام » ، فهل كانت شهرته قاصرة على هذا المجال فحسب ؟!

لقد أجمع الرواة ـ وترى ذلك متواتراً طبقة عن طبقة ـ أن علي بن أبي طالب هو أول فتى دخل في الإسلام ، وسارت الركبان بهذا الحديث يسوقونه على أنه ميزة لعليّ ، بمعنى أنه لم يعش الجاهلية ، وإنما يكاد يكون مسلماً ـ منذ أدرك ـ فهل كانت هذه هي ميزته فحسب ؟!

كان علي ابن عمّ الرسول الأعظم ومتبنّاه .

كان علي أخاً لرسول الله والرسول أخوه ـ كما يروي الرواة الثقات ـ نقلاً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، حيثما كان يتحدث عن ابن عمه علي .

وكان بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لم يكن ثمة نبي بعد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان هو وزير النبي وخليفته من بعده[1] .

وتلك نصوص قاطعة عن الرسول ، قاطعة الدلالة على إمامة عليّ ، فهل تكفي هذه الإشارات اللامحة للكشف عن أحقيته في الإمام عليه السلام ؟!

---

(١) أنظر المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٠٩ ، مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٨١ ، الطبعة الأولى ـ خصائص الإمام علي للحافظ النسائي ص ٢١ طبعة مصر ـ تفسير الفخر الرازي ١٣ / ٤٨ ـ ٤٩ ، أسباب النزول للواحدي ١٣٥ طبعة مؤسسة الحلبي ـ حياة محمد للاستاذ محمد حسين هيكل الطبعة الأولى ص ١٠٤ ـ جريدة السياسة المصرية ملحق عدد ٢٧٥١ .

قال ابن مسعود في شأن الإمام : « كنا نتحدث عن أن أفضل أهل المدينة هو عليّ » .

بل إن عمر نفسه كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن ، وكان يقول : « لولا عليٌّ لهلك عمر » .

وهناك جوانب أخرى عديدة يجب أن نجليها لأنفسنا وللعالم كله على السواء . . .

لقد نقض بعض الذين بايعوا علياً ، ونقضوا ما عقدوا عليه العزم وكانت الحروب بين المسلمين أن انتهى صراعها بأنتصار الاقوياء ، ولم تنته المعارك بأنتصار الحق ، إذ لو انتصر الحق لكان علي ـ عليه السلام ـ هو الحقيقة المجسدة ، وكان نصره فوق كيد الكائدين ، وقوة المال والسلاح ، وسطوة البغي والغرض ، والدهاء والإغراء .

ولأمر مّا أراد الله أن تدخل دولة المسلمين في محنة كبرى ، ولما تستقر أصول الإسلام في نفوس الناس ، ولا سرت روحه في دمائهم على الوجه الذي كنا نظنه في أول دراسة لنا لقضية صدر الإسلام ، ومن المعلوم الذي يجب أن يكون بديهة في نفوس الباحثين أن نعلم أن الإسلام هو صحوة المستقبل للعالم كله ، ولم يكن ـ كما كنا نتخيل أحياناً ـ دعوة الزمن الذي ظهر فيه وحده . . لأن إطاره المكاني هو العالم كله ، والإطار الذي يتحرك من خلاله ـ من حيث الأزمنة والعصور ـ هو كل الأزمنة وكل العصور ، منذ ظهر الرسول ـ صلوات الله عليه ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد علمنا من الصراع بين عليٍّ عليه السلام وبين معاوية ان السلطة قد انتقلت الى معاوية بن أبي سفيان بن حرب . . . وأمه هند آكلة الأكباد . . التي نهشت جسد عم الرسول حمزة عليه السلام ، وفلقت رأسه . . وأكلت كبده . . شفاء لحقدها على الرسالة وأهلها ـ حينذاك ـ واستبد معاوية بالناس ، وأحال الخلافة ملكاً عضوضاً ، واستحصل من الناس ـ جبراً وقسراً ـ على عهد لأبنه « يزيد » . . . ونحن نعلم من هو « يزيد » وما كان عجباً أن يكون هو « يزيد » لأنه وارث القسوة والفجر ، ومستمد الفساد من شجرة الفساد . . والعرق دساس . . . ونحن لا

نجري الأبحاث ـ مع الأسف الشديد ـ عن شجرة الرجال ، وأصول الرجال .

لقد عمل اليهود ـ من خلال كل الجهود ـ على تدمير علم الانساب لتختلط العائلات ويمكن من خلال هذا الاختلاط أن يندس في وسط كل قطر من اقطار الإسلام طبقة من اليهود يدعون الإسلام ليفسدوا فيه ، وكانوا يناصرون كل من يدعو للفتنة .

ولكن بنية الإسلام القوية رغم كل ما مر بها لم تتوقف عن النماء ولم يزعزع عقيدة الإسلام ما مارسه بنو أمية من طغيان .

ولقد أحاط المفسدون بحكام الدولة الإسلامية ليحولوا بينهم وبين كل إصلاح . . . محاولين إيقاع الفتنة في دولة المسلمين .

لقد قيل : إن بناء الجماعة تصدع على عهد علي ، ومن قبله كان الثائرون يحاصرون بيت عثمان ، فهل قرر هذا أو ذاك : مصير الإسلام والقرآن ؟!

إن هذا الدين الخالد مر بهذه المحنة وبغيرها من المحن وخرج منها أقوى مما كان من قبلها . وذلك أن بنية العقيدة أقوى من أن تحطمها الرضوض والآلام .

أكلت الحروب بين علي وخصومه عدداً كبيراً من المسلمين ولم يكن متوقعاً أن يحدث ذلك على وجه من الوجوه ، إلا أن اتساع الملك والسلطان كان يقتضي ذلك ، وكان يقتضي غيره من ألوان الصراع . . . وكانت هذه المحن ـ في رأيي ـ هي درجة الغليان التي أحاطت بالدين الجديد فحفظت الشعب أن ينهار أمام الحضارات المجاورة ، وأمام الفتوحات الوسيعة المدى ، بما تحتويه من أفكار جديدة ، واتجاهات متعددة مختلفة الألوان والاحجام .

إن علينا أن ندرس كل أولئك حين ندرس شخصية هذا البطل العظيم في تاريخ الإسلام علي بن أبي طالب عليه السلام .

وعلينا أن نعلم : أن انفصام عرى الوحدة بين المسلمين ، وتفرقهم في الآراء والمذاهب والأحزاب ؛ كل ينصر رأيه بالقول وبالعمل على رأي خصمه ، وكل يصارع في سبيل عقيدته هذه أو تلك بالفكرة حيناً وبالسلوك احياناً ، وعلينا أن ندرك أن هذا كله وغيره ليس إلا دلائل صحة ، لا دلائل وهن أو هزيمة ، وأن الصراع دائماً

يدل على اليقظة لا على الموت ، ما دام لا يُفضى إلى انشقاق في صفوف الأمة ، أو مواجهة عدائية بين الطوائف .

وقد اكتمل الدين حينما اكتمل نزول القرآن ، ولقد كان الإسلام على عهد الرسول دعوة وفكرة ـ اكثر منه دولة وسلطاناً ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أقام دولة على أساس من التشريع القرآني ، فقد كانت دولة صغيرة الحدود على أية حال ، ولكنها كانت نوية قوية ، قابلة دائماً على النمو والازدهار ، وبقي أن تكتمل الدولة بعد ذلك فتوسع من آفاقها وتنشر من سلطانها على هذه الأسس السليمة ، كانت نواة في مثل صلابة « الجرانيت » يحمل لواءها نفر من المؤمنين الأتقياء لا يبالون أين يكون الموت ، إذ هو ـ عندهم ـ دور من أدوار الحياة ، ومرحلة من مراحل الوجود ، فهم لا يخشون شيئاً ولا أحداً ولا دولة من الدول ، ولا حكومة من الحكومات ، وإنما يذيعون نظريتهم في مجال الفكر وفي مجال التطبيق على السواء ، وقد بدأ صفوة المسلمين ـ وعلى رأسهم ـ عليٌّ عليه السلام يتوقون إلى بناء الدولة الوليدة ، على أساس من النظرية والعقيدة ، واختلفت الآراء بين الصفوة وبين عامة من المسلمين ، ممن لم تتدخل العقيدة في مسرى دمائهم . . .

كانت الدولة وليدة في المهد ، وقد تعرض الوليد لكل ما يتعرض له الوليد من محن تكبر في عينه هو ، وإن صغرت في عين الزمن ، الذي اثبت دائماً أن البقاء للأصلح ، وأن الخلود للإيمان .

مرَّت دولة المسلمين في محنة كبرى فآذت المحنة دولتهم، ولم تنل من دينهم ، وللنشأة الجديدة ثورات وحركات وصراعات ، سنرى جوانب منها حين ندرس الإمام ، وما أحاط به ، وبالمسلمين من حوادث ، وأحداث . . .

وسنرى جوانب منها حين نطالع صفحات هذا الكتاب .

عبد الهادي مسعود

القاهرة في ١٨ شعبان ١٣١٤هـ

٥ سبتمبر ١٩٧٤ م

مقــدمة المــؤلــف

خالجتني فكرة البحث في هذا الموضوع منذ زمن بعيد ، غير أن أموراً كثيرة قد حالت ـ مع الأسف الشديد ـ بيني وبين إخراجها إلى حيز الوجود ، وعندما قررت الحكومة العراقية إعفائي عن الخدمة ـ بالشكل المعروف ـ ساورني ألم وامتعاض شديدان ، فطفت أبحث عن وسائل تعينني على التعبير عن ذلك الألم وهذا الامتعاض ، وما هذه الدراسة في جوهرها إلا احد الجوانب الإيجابية لذلك التعبير ، وقد شجعني على ذلك عامل اشار إليه أبو جعفر أبن أبي زيد نقيب البصرة قبل زهاء سبعمائة عام ذكره ابن أبي الحديد حين قال : « قلت لأبي جعفر النقيب ما سبب حب الناس لعلي . . . دعني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ؟ . . . فضحك وقال . . . إن أكثر الناس موتورون في الدنيا . أما المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون ! نحو عالم يرى أن لا حظ له في الدنيا ، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسعاً عليه ، وشجاع قد أبلى في الحرب . . . وليس له عطاء يكفيه . . ويرى غيره ـ وهو جبان ـ مالكاً لقطر عظيم . . . وعاقل سديد التدبير قد قدر عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحمق مائقاً تدر عليه الخيرات .

فإذا عرفت هذه المقدمة فمعلوم أن علياً كان مستحقاً محروماً ، بل هو أمير المستحقين المحرومين .

ومعلوم أن الذين ينالهم الضيم يتعصب بعضهم لبعض . . . وعليٌّ رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل . . وهو مع ذلك محروم محدود قد جرعته الدنيا علاقمها . . وعلا عليه من هو دونه . . ثم كان في آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل في محرابه ، وقتل بنوه وسبي حريمه ونساؤه ، وتتبع أهله وبنوه بالقتل والطرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم

وانتفاع الخلق بهم »[1] .

طفقت إذن أبحث في هذا الموضوع المعقد الشائك ، وقد أنار أمامي سبيل البحث كبار المؤرخين المسلمين من حيث تدوين الوقائع التاريخية ، كما أنار سبيلي كذلك ـ من حيث تحليل تلك الحوادث وتفسيرها ـ فريق من الكتّاب المصريين المحدثين ، فأنقسمت هذه الدراسة من حيث وحدة موضوعها إلى ثلاثة أقسام :

بحثت في القسم الأول منها : قصة الخلافة بثلاثة فصول ، تطرقت في الفصل الأول إلى مسألة الوصية ، وفي الفصل الثاني إلى حديث السقيفة الذي بدأ ـ على ما أرى ـ والرسول مسجى على فراش الموت ، وانتهى بمقتل عثمان ، لا بخلافة أبي بكر كما هو معروف ، وبحثت في الفصل الثالث خلافة الإمام .

أما القسم الثاني من الكتاب فيتضمن البحث فيما سميته « قميص عثمان » ـ ويقع في ثلاثة فصول أيضاً ، تطرقت في الفصل الأل منها إلى حركة الناكثين ـ أصحاب الجمل .

وفي الفصل الثاني إلى تمرد القاسطين : أصحاب صفين .

وفي الفصل الثالث إلى مسألة التحكيم وخروج المارقين ومصرع الإمام .

لقد ساقني البحث ـ في معرض التحدث عن قميص عثمان ـ إلى الاعتقاد بأن الصراع بين علي ومناوئيه ما هو في جوهره إلا صراع بين فلسفتين : فلسفة خلقية مثلى ـ تستمد أصولها من القرآن وسنة الرسول ـ سار عليها الإمام في حكمه ، وفلسفة ملتوية غادرة ـ تستمد مقوماتها من حياة العرب في جاهليتهم ـ انغمس فيها مناوئوه إلى الأذقان . ولعل الصراع بين علي ومناوئيه يعيد إلى الذاكرة قصة الصراع الذي حدث بين النبي وكفار قريش تحت زعامة الأمويين . وإذا كان النصر قد كتب للنبي في نزاعه مع مناوئيه لاعتصامهم بالأوثان فإن النصر لم يكن في متناول الإمام لتقمص مناوئيه[2] رداء الاسلام . فكان خصوم الرسول المندحرين من الأمويين

---

(١) يدنف : أي يجهز عليه بالقال .

(٢) معاوية ومن هم على شاكلته ، ومن المحزن حقاً أن يتخذ بعض الناس من هؤلاء أبطالاً يدرسون سيرتهم للناشئة في الوقت الذي يريدون من تلك الناشئة أن تتحلى بمكارم الأخلاق التي جاء بها الدين الحنيف ، فالاستقامة التي يدعو اليها الدين ، والغدر الذي سار عليه معاوية ضدان لا يجتمعان .

ومن هم على شاكلتهم قد حاربوا ابن عمه بعقائد آبائهم الكامنة وراء ستار الإسلام . فمعاوية ـ مثلاً ـ هو ابن هند آكلة الأكباد ، وأبوه أبو سفيان أول المشركين في كل حرب ، ورأسهم في كل فتنة ، لم ترفع على الإسلام راية إلا وكان صاحبها . تظاهر بالإسلام غير منطوٍ عليه ، وأخفى الكفر غير مقلع عنه ، ويلوح لي أن غدر معاوية قد أصاب روح الإسلام قبل أن يصيب أبا تراب[1] . فقد انفسح باغتيال عليّ المجال واسعاً أمام قوى الشر التي حبسها الإمام في نطاق ضيق من خشية الله ، ومبادىء الدين الحنيف . فتلاشت من القلوب حرارة الإيمان التي كانت تجمع بين قلب الخليفة الكبير وقلوب رعاياه . واستهان الولاة والحكام بتطبيق مبادىء الإسلام على شؤون الحياة ، وعمدوا إلى كسب ولاء الناس بوسائل فاسدة من الرشوة والملاينة ، أو الإرهاب والتجويع . فذوى روح الإسلام وانطوت مبادئه على نفسها بدلاً من أن تسير في طريق التوسع والانتشار . وكانت حصيلة ذلك انتشار التذمر والإلحاد في جسم المجتمع العربي وتدني المستويات الخلقية الرفيعة بين الحكام والمحكومين على السواء . فبرر الاستهتار والظلم والخروج على القرآن ، وتعاليم الرسول من جهة الحاكمين ، والانقياد والملق والنفاق من جهة الرعايا . واختفى القائلون بالحق وراء سحب المطاردة والاضطهاد . فأصبح المطالبون بحقوقهم « زنادقة » و « ملحدين » و « رافضة » . وصار الوصوليون والمنافقون أصحاب الحظوة والكلمة النافذة ، فجريرة معاوية ـ إذن ـ أكبر من مجرد غدره بالإمام لأنها أصابت صرح الإسلام من حيث هو نظام للحكم ومجموعة من المثل العليا ومكارم الأخلاق .

ذلك ما يتصل بالقسمين الأول والثاني من هذه الدراسة .

أما القسم الثالث فيروي للقارىء مقتطفات من سيرة الإمام ـ رواها كبار المؤرخين المسلمين ـ ونماذج من سيرة معاوية أثناء نزاعه مع الخليفة . وبما أني كتبت هذا البحث متأثراً بالمثل العليا التي جاء بها محمد ؛ والتي حرص عليٌّ على تطبيقها في الحكم ـ وبخاصة ما يتصل منها بتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس وبالتحلي بمكارم الأخلاق .

---

(١) لا مجال للتفكيك بين الإسلام وعلي عليه السلام « الناشر » .

فلا عجب إن وجدني القارىء انتقد الذين خرجوا على تلك المثل في الأقوال وفي الأعمال من الحكم والأمراء والولاة . قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط بين الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين**﴾ ٣ : ٢١ ، ٢٢ » .

وذكر مسلم بن الحجاج في صحيحه بأسانيد مختلفة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى ينزعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ؛ وإذا وعد أخلف ؛ وإذا خاصم فجر »[1] .

والمنافقون ؛ كما وصفهم الله في سورة المنافقين الآية : ٣ ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾

وسوف نتخذ هاتين الآيتين والحديث الآنف الذكر مقياساً للحكم على عليٍّ ومناوئيه أثناء البحث في « قميص عثمان » .

حق وباطل ، أبديان سرمديان . لكل زمان حقه وباطله . ولكل زمان علي ومناوئوه .

بغداد في : ١ / ١ / ١٩٥٦ **نوري جعفر**

---

(١) أنظر صحيح مسلم ج ١ ص ٤٢ .

القســـم الأول

قصة الخلافة ١١ ـ ٣٥ هـ

١ ـ **الفصل الأول** : مسألة الوصية .

٢ ـ **الفصل الثاني** : حديث السقيفة .

أ ـ أبو بكر الصديق (١١ ـ ١٣ هـ.)

ب ـ عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ.)

ج ـ عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هـ.)

٣ ـ **الفصل الثالث** : خلافة الإمام (٣٥ ـ ٤٠ هـ.)

الفصل الأول

مسألة الوصية

الخلافة ـ بنظر فريق من المسلمين ـ مركز ديني ودنيوي في آن واحد . فهي دينية من حيث كونها تستند إلى تعاليم الإسلام في تصريف شؤون الناس فيما يتعلق بصلاتهم في جميع مظاهرها من جهة ومن حيث كون صاحبها معصوماً من الخطأ كعصمة الأنبياء عالماً بجميع أمور الدين من جهة ، أخرى ، وهي دنيوية فيما يتصل بكون الخليفة شخصاً لا ينزل عليه الوحي ؛ وإنما هو مكلف ، بنص من النبي ووحي من الله بالمحافظة على تعاليم الدين وتطبيقها على سنن الحياة والنهوض بالرسالة النبوية وبثها بين البشر كافة .

فالخلافة على هذا الأساس ظاهرة تأتي بعد مرتبة النبوة مباشرة في القدسية والأهمية ؛ فلا غرابة والحالة هذه ، على ما يقول حملة هذا الرأي ، أن أمر الله نبيه محمداً بالنص على ولاية خليفته من بعده : وهذا الخليفة هو الإمام علي بن أبي طالب غير أن قسماً من المسلمين ـ حسب وجهة النظر هذه ـ قد سلب الإمام علياً حقه في الخلافة حينما نقلها منه إلى غيره من الصحابة ، ولكن الإمام علياً ـ مع هذا بنظر هؤلاء ـ هو الخليفة الحقيقي للمسلمين بعد الرسول ، وإن لم يمارس منصبه هذا بحكم طبيعة الظروف التي عاش فيها .

والأساس الذي يستند إليه هذا الفريق من المسلمين في اعتباره الخلافة منصباً دينياً ؛ هو أن الرسول ، بعد أن فارق الحياة الدنيا تاركاً تعاليمه الدينية . كان لا بد له من تولية شخص يأتي من بعده في الكفاءة والخلق ليقوم بتصريف أمور الناس ـ وذلك لأن الغاية من نزول الدين ليست محصورة على تطبيقه في عهد الرسول وبين قريش أو العرب وحدهم ، ولا بد لتطبيق تعاليمه بعد وفاته من شخص كما ذكرنا ، أقرب الناس إليه من حيث فهمه لأصول الدين واتصافه بمتانة الأخلاق .

وليس من المعقول أن يترك أمر المسلمين ، بعد وفاة الرسول ، إلى الصدف والظروف في هذه المسألة الحيوية التي يتوقف عليها مصير الشريعة السمحاء من حيث التطبيق والانتشار . وإن قصة اختيار المسلمين لخليفتهم بعد النبي ، أمر على جانب كبير من الخطر والمجازفة .

فمن هم الذين يوكل إليهم اختيار الخليفة الجديد ؟ هل هم جميع المسلمين ؟ أم فئة خاصة منهم ؟ ما خصائص هذه الفئة ؟ هل هي مقصورة على أبي بكر وعمر وأبي عبيدة في بادىء الأمر ونفر من الانصار اجتمعوا في السقيفة كما سنرى ؟ أليس استبعاد علي وبني هاشم وسعد بن عبادة وابنه ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر والزبير بن العوام وخالد بن سعيد ، وحذيفة بن اليمان وبريدة وغيرهم « وهم من خيرة أصحاب النبي » بجعل الخلافة ، وفي حالة اقتصارها على رأي فئة خاصة من الصحابة ، غير كاملة الشروط ؟ .

هل يمكن أن يتوصل المسلمون إلى اختيار أفضلهم للخلافة مع ما بينهم من أحقاد وعنعنات قبلية جاهلية لم يستأصلها الإسلام كما سنرى ؟ .

هل كان الرسول راغباً في إثارة تلك العصبيات ؟ .

كيف يجري اختيار الخليفة : بالتصويت الشفوي ؟ أم بالكتابة ؟ .

كم من المسلمين يستطيعون أن يقرأوا ويكتبوا آنذاك ؟ .

أين يجري الانتخاب ؟ أفي الحواضر والبوادي ؟ وكيف يمهد لذلك الانتخاب ؟ وكم يستغرق من الوقت ؟ وكيف تصرف شؤون المسلمين أثناء فترة الانتخاب .

تلك أسئلة محيرة . . . ؟

لقد مر بنا ذكر رأي فريق من المسلمين في قضية خلافة الرسول . وقد لخص أحد الباحثين موضوع الخلافة والوصية من وجهة النظر هذه بقوله[1] :

---

(١) عبد الحسين أحمد الاميني النجفي « الغدير في الكتاب والسنة والأدب » الطبعة الأولى مطبعة الغري في النجف ؛ ١٩٤٥ م ، ص ٨ - ١١ .

« أجمع رسول الله الخروج إلى الحج في سنة عشر من مهاجره ، وآذن في الناس بذلك . فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي يقال عليها : حجة الوداع . . . ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله . . .

ولما قضى مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة . . ووصل غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين ، نزل عليه جبرائيل عن الله يقول : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾[1] . . . وأمره أن يقيم علياً علماً للناس . . .

ثم قام الرسول خطيباً . . وأخذ بيد علي فرفعها . . فقال : إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين . . . والولاية لعلي ، **من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**[2] . . . ثم نزلت الآية : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[3] .

فقال رسول الله : [الحمد لله][4] على إكمال الدين وإتمام النعمة . . . والولاية لعليٍّ من بعدي » .

ومن الطريف أن نذكر هنا أن المقريزي[5] قد أشار إلى احتفال قسم من المسلمين القدامى بذكرى عيد الغدير حين قال :

« اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيداً مشروعاً ، ولا عمله احد من سالف الأئمة المقتدى بهم ، وأول ما عرف في الإسلام بالعراق أيام معز الدولة علي بن بابويه ، **كان أحدثه** في سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فأتخذه الشيعة من حينئذٍ عيداً ، **وأصلهم** فيه ما خرجه الإمام أحمد في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب قال :

كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في سفرتنا فنزلنا بغدير خم ونودي : الصلاة جامعة ، وكسح لرسول الله تحت شجرتين فصلى الظهر ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى . . . قال :

---

(١) المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) انظر « عقبات الأنوار » مجلد حديث الولاية .

(٣) المائدة : الآية ٣ .

(٤) ما بين المعقوفين سقط من الأصل . (الناشر) .

(٥) الخطط ١ / ٢٨٨ - ٣٨٩ .

من كنت مولاه فعليٌ مولاه ، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه . قال :

فلقيه عمر بن الخطاب فقال : هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولى[1] كل مؤمن ومؤمنة . (وغدير خم) على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق وتصب فيه عين وحوله شجر كثير .

ومن سننهم في هذا العيد وهو أبداً اليوم الثامن عشر من ذي الحجة أن يحيوا ليله بالصلاة ويصلوا في صبيحته ركعتين قبل الزوال ، ويلبسوا فيه الجديد ويعتقوا الرقاب ، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح .

ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق أرادت عوام السنة مضاهدة فعلهم ونكايتهم فأتخذوا في سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد عيد الغدير بثمانية أيام عيداً أكثروا فيه من السرور واللهو وقالوا :

هذا يوم دخول رسول الله الغار هو وأبو بكر .

وبالغوا في هذا اليوم في إظهار الزينة . . . ولهم في ذلك أعمال مذكورة في أخبار بغداد !!! »[2] .

والخلافة . بنظر فريق آخر من المسلمين : مركز دنيوي صرف من حيث وجوده ، وإن كان مبنياً على الدين من حيث الأسس النظرية التي ينبغي أن يسير وفق مستلزماتها ، وعلى هذا الاساس فليس هناك نص صريح من جانب الرسول على توليته خليفة للمسلمين ، لانتفاء الضرورة الدينية إلى ذلك .

ولهذا السبب نجد بعض المسلمين يجتمعون ، بعد وفاة الرسول في سقيفة بني ساعدة[3] كما سنرى ، لأختيار الخليفة لتسلم هذا المنصب الرفيع . فأختير أبو بكر ، ثم عمر ، فعثمان ، فعلي ، فهؤلاء إذن هم الخلفاء الراشدون مرتبون حسب تسلسلهم الزمني وحسب منزلتهم الدينية ، على ما يقول حملة هذا الرأي ، والحجة

---

(١) وفي نسخة : مولاي ومولى . . إلخ . (الناشر) .

(٢) يراجع : سيرة ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، والبخاري ، وعيد الهجرة : في ربيع الأول .

(٣) السقيفة اسم لإيوان كبير كانت تجتمع فيه العرب في الجاهلية للمشورة والمداولة بالأمور الباطلة ، ومجازاً يطلق على الكلام التافه ، أنظر غياث اللغات طبعة الهند ، مادة « سقف » . (الناشر) .

التي يستند اليها هذا الفريق من المسلمين هي : أن التعاليم الدينية قد اصبحت كاملة وواضحة بعد وفاة الرسول ، ولم تكن هناك ضرورة سماوية لتعيين المشرف على تطبيقها على شؤون الحياة . وقد وضع هذا الرأي ـ بشكله المعتدل ـ أحد الكتّاب المعاصرين[1] حين قال : « الخلافة الإسلامية ـ كنظام من نظم الحكم ـ هي في حقيقتها وليدة رأي ، وليست وليد : نص ديني ثابت ، لا يحتمل التأويل . ورسول الله ـ وهو يستقبل ربه ـ لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة ، وإن بدرت منه في اوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه في تفسيرها عقب وفاته ـ بين الاحتمال والترجيح .

وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة المستخلف كحديث الغدير[2]، وحديث خاصف النعل .

وهناك فريق ثالث من المسلمين وقف ـ في نظرية الخلافة ـ موقفاً وسطاً بين الفريقين المختلفين ، فهو يتفق مع الفريق الثاني في اعتبار الخلافة منصباً دنيوياً خالصاً وينكر وجود النص الدال بصراحة على وصية النبي لعليٍّ خليفة للمسلمين من بعده ، على الشكل الذي ذكره الفريق الأول من المسلمين ، ولكن ـ مع هذا ـ يعتبر علياً أولى بالخلافة من أبي بكر لأنه أفضل المسلمين على الإطلاق .

وقد لخص هذا الرأي أحد الباحثين حين قال :[3] : « اتفق شيوخنا كافة . . على أن بيعة أبي بكر صحيحة شرعية ، وإنها لم تكن عن نص وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع كونه طريقة إلى الإمامة ، واختلفوا في التفضيل .

فقال قدماء البصريين : كأبي عثمان وعمرو بن عبيد : إن أبا بكر أفضل من علي . . . وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة .

وقال البغداديون قاطبة ـ قدماؤهم ومتأخروهم :

إن علياً . . أفضل من أبي بكر : وإلى هذا المذهب ذهب ـ من البصريين ـ أبو

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود ـ الإمام علي بن أبي طالب ـ لجنة النشر للجامعيين بالقاهرة ١٩٥٣م ، ج ٥ ص ١٠٤ .

(٢) راجع الغدير للشيخ الاميني صدر منه ١١ جزءاً طبع في العراق وايران ولبنان .

(٣) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ـ ١ / ٣ الطبعة الأولى .

علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، والشيخ أبو عبد الله الحسين بن علي البصري . . . وقاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد . . . وأبو محمد الحسن بن متوية . . .

وذهب كثير من الشيوخ إلى التوقف فيهما ، وهو قول أبي حذيفة واصل ابن عطاء ، وأبي الهذيل محمد بن الهذيل العلاف . وهما وإن ذهبا إلى الوقف بينه وبين أبي بكر وعمر . . قاطعان على تفضيله على عثمان .

وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله عليهم »

وقد ذهب الباحث الآنف الذكر ، في موضع آخر[1] ، إلى القول في موضوع الخلافة : إن الذي استقر عليه رأي المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره :

أن علياً أفضل الجماعة ، وأنهم تركوا الأفضل لمصلحة رأوها ، وإن لم يكن هناك نص يقطع الغموض وإنما كانت إشارة وإيماء لا يتضمن شيء منهما صريح النص ، وأن علياً نازع ثم بايع . ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ولا لزومها

وبالجملة أصحابنا يقولون :

إن الأمر كان له وكان هو المستحق والمتعين ، فإن شاء أخذه لنفسه ، وإن شاء ولاه غيره . فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره اتبعناه ورضينا لما رضي » .

أي أن هذا الفريق من المسلمين يقول : بأفضلية عليٍّ على أبي بكر وبالتالي بأحقيته بالخلافة دون أن يعترف بالنص على وصية الرسول له ، وبذلك تصبح خلافة أبي بكر سابقة لخلافة عليٍّ من الناحية الزمنية الواقعية أو « دوفاكتو » كما يقول المشرعون المعاصرون ، في حين ان خلافة الإمام سابقة لها من الناحية الشرعية « دوجوري » .

كان موضوع الخلافة وما زال محور الخلاف ، وأساس الفرقة بين طوائف

---

(١) شرح النهج ٢ / ٥٧٢ الطبعة الأولى طبعة مصر . (الناشر) .

المسلمين ، وقد تفرعت عنه خلافات أخرى كثيرة ، نظرية وعملية ، وما زالت قائمة بين المسلمين منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم .

وتعصب كل فريق لرأيه ، واعتبر نظريته في الخلافة هي النظرية السلمية وما عداها فأختلاق وبهتان ، وليس أمام الباحث من سبيل تقريب وجهات النظر المختلفة ، ذلك ، لأن التسليم بأحدها يستلزم إهمال النظريتين الآخريين ، وإذا أغفل الباحث ، أمر التحدث عن وصية النبي لعليٍّ في الخلافة من بعده على الشكل الذي يقول فيه فريق من المسلمين ونظراً إلى مسألة الخلافة من الناحية الزمنية الصرفة فليس لديه على ما نرى من الأدلة القاطعة ما يدعوه إلى التسليم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أهمل أمر التفكير فيمن يخلفه من بعده في تصريف شؤون المسلمين ، وهنا تتوارد الى الذهن جملة قضايا تاريخية مهمة ، وفي مقدمتها قضية « القرطاس والدواة » يقول ابن الأثير[1] :

« اشتد برسول الله مرضه و وجعه فقال : ائتوني بداوة وبيضاء[2] أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدي أبداً ـ فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا : إن رسول الله يهجر ، فجعلوا يعيدون عليه . فقال : دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه »

---

(١) الكامل في التاريخ : ٢ / ٢١٧ .

(٢) قضية إيتوني بدواة وبيضاء : إن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم علم وهو في مرض موته ما حدث في المجتمع الإسلامي من تطورات و وقوع احداث يخشى على الإسلام منها فقد كثرت القالة حول الخلافة من بعده من تنفيذ أمره « بغدير خم » أو يعود الأمير للمجتمع في الاغلبية الساحقة التي تعارض تلك الفكرة وهل هناك مجموعة تسعى لكسب الأكثرية لأخذ الحكم ، وما هو موقف الأنصار وكبار الصحابة من هذا الأمر . . . الخ .

فكان النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يؤلمه وقوع مثل هذه الأشياء التي تؤول بالأمة الى الفرقة بعد الاجتماع والعداوة بعد الإخاء فأراد صلّى الله عليه وآله وسلم أن يقرر مصير الأمة وأن يجدد موقفها ليقطع بذلك كل طريق يوصل للخلاف المؤدي الى الضلال فقال : إيتوني بدواة . . . الحديث أراد أن يضع الأمة نظاماً يسيرون عليه دوماً في قضية الخلافة وتحديد الشخصية التي تليق بأن تخلفه في منصّبه .

ومن البديهي ومالا يقبل الشك أن علياً هو تلك الشخصية التي تتجسد فيها آمال الأمة ولكن حدث ما حدث فما أعظم من ذلك الموقف على النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقال لهم متأثراً: أبعد الذي قلتم ، ومات والألم يحز نفسه ولكن أراد أن يطوق الأمة بواجب لا مفر لهم من الالتزام به ، ألا وهو العناية بأهل بيته فقال صلّى الله عليه وآله وسلم : « أوصيكم بأهل بيتي خيراً ، الله الله في أهل بيتي وأخرجوا اليهود من جزيرة العرب ، وهي آخر ما تكلم به صلّى الله عليه وآله وسلم كما سيأتي .
الناشر

فأوصى بثلاث : أن يخرج المشركون من جزيرة العرب وأن يجارى الوفد بنحو مما كان يجيزهم ، وسكت عن الثالثة عمداً وقال : نسيتها » ، وذكر البخاري[1] فقال : « حدثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس : اشتد برسول الله وجعه فقال : ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ، فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا : ما شأنه أهجر ؟ استفهموه ، فذهبوا يرددون عليه ؟ فقال : دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه ، وأوصاهم بثلاث قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ، وسكت عن الثالثة ، أو قال : فنسيتها .

وحدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال : لما حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي البيت رجال ، فقال النبي . . . هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، فقال بعضهم : إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، وحسبنا كتاب الله ؟ فأختلف أهل البيت واختصموا . فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله : « قوموا » .

وذكر ابن سعد[2] : « أن الرسول عندما حضرته الوفاة وكان معه في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال : هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده . فقال عمر : « إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ؟ فاختلف أهل البيت واختصموا ، فلما كثر اللغط والاختلاف . . قال النبي : قوموا عني» . فما الذي حمل عمر يا ترى على ذلك ؟ وهل تجيز آداب المجاملة أو العرف أو الدين أن يقول عمر : إن الوجع قد غلب النبي وعندنا كتاب الله فهو حسبنا ؟ وما قصده بذلك القول ؟ وهل يتفق موقف عمر مع قوله تعالى في وصف النبي بأنه : ﴿ **لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[3] .

ومما يلفت النظر حقاً في هذا الموضوع الخطير : ان اصحاب النبي ـ على ما يذكر المؤرخون ـ قد سألوه قبيل وفاته عن كثير من الأمور التي تبدو بنظرنا أقل وجاهة

---

(١) صحيح البخاري ٥ / ١٣٧ ، ١٣٨ طبع مصر .
(٢) الطبقات الكبرى ٤ / ٦٠ ـ ٦١
(٣) النجم : ٣ ، ٤ .

من موضوع الخلافة ؟ فقد سألوه على ما يحدثنا ابن خلدون[1] : « عن مغسله ؟ فقال : الأدنون من أهلي ، وسألوه عن الكفن ؟ فقال : في ثيابي ، أو ثياب مصر ، أو حلة يمانية . . . وسألوه عمن يدخل القبر معه ؟ فقال : أهلي » . فهل من المعقول أن يغيب عن أذهانهم موضوع الاستفسار عن الخلافة ؟ أو أن يغفله النبي نفسه ؟ ويستطرد ابن خلدون بعد الذي ذكرناه فيقول : المصدر نفسه والصفحةنفسها ـ« ثم قال النبي : إئتوني بدواة وقرطاس ، اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ؟ فتنازعوا وقال بعضهم : أهجر ؟ ثم ذهبوا يعيدون عليه فقال : دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه » .

ترى ماذا أراد الرسول أن يكتب ؟ ولماذا امتنع القوم عن تلبية الطلب ؟ هل أراد أن يثبت النص الشفوي على الخلافة « حسب وجهة نظر بعض المسلمين بالكتابة زيادة في التأكيد ، ودفعاً للألتباس ؟ ثم أيجوز أن يقال : بأن الرسول يهجر في واحدة من ثلاث قالها بالتتابع في آن واحد ؟ أي أن الرسول كان يهجر[2] بنظرهم في مسألة الدواة والقرطاس فقط على حين أنه لم يكن كذلك بنظرهم في إخراج المشركين من جزيرة العرب ومجازاة الوفد بمثل ما كان يجيزهم فيه ؟ لقد نفذ أبو بكر الجزء الخاص من وصية الرسول هذه فيما يتصل بجيش أسامة . ومحاربة المشركين في جزيرة العرب ، في حين أن الرسول قال ذلك في الوقت الذي طلب فيه الدواة والقرطاس .

ومن الطريف أن نذكر هنا أن ابن عباس قد روى محاورة طريفة جرت بينه وبين عمر بن الخطاب في أوائل عهده بالخلافة ملخصها : أن عمر قال له : « يا عبد الله عليك دماء البدن إن كتمتها . . هل بقي في نفس علي شيء من أمر الخلافة ؟ قلت : نعم ، قال : أيزعم أن رسول الله نص عليه ؟ قلت : نعم . فقال عمر : لقد كان في رسول الله من أمره ذروة من قول ، لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً ، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرح بأسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام . . فعلم رسول الله أني علمت ما في نفسه

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ٢ / ٢٩٧ .

(٢) قال ابن الاثير في النهاية ٥ / ٢٤٦ في مادة هجر ؟ الهجر بالضم هو الخنا والقبيح من القول ومنه حديث مرض النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: ما شأنه : أهجر ؟ . . والقائل كان عمر . « الناشر » .

فأمسك »[1] . وإذا صحت هذه الرواية فإن عمر يبدو كأنه أحرص على الإسلام من نبيه وهو أمر كان المفروض في عمر أن لا يهبط إليه .

وإذا أغفلنا ؛ لغرض سهولة البحث بقدر ما يتعلق الأمر بموضوع الخلافة من الناحية الدنيوية ، أمر الاستشهاد بالنصوص التاريخية التي ينفرد بذكرها الفريق الأول من المسلمين وركزنا اهتمامنا في النصوص التي يذكرها الفريق الثاني من المسلمين أصبح بمقدورنا أن نجعل دراستنا لهذا الموضوع تسير في هذه المرحلة من مراحلها بالاتجاه التالي :

ترى ما الذي حال بين علي والخلافة بمعناها الزمني بعد وفاة الرسول ؟ وقبل أن نتصدى للإجابة على هذا السؤال يجمل بنا أن ننبه القارىء إلى أن ليس لدينا من الأدلة المقنعة ما يحول بيننا وبين الاعتقاد باندثار كثير من النصوص التاريخية المهمة المتعلقة بالنقطة موضوع البحث بطريقة عرضية ، أو مقصودة ، أو بتحريف بعض آخر ، أو وضع نصوص تاريخية معاكسة وبخاصة في صدر الدولة الأموية .

ولكننا مع هذا تمشياً مع وحدة البحث وعدم تشتيت موضوعه قد اعتمدنا قدر المستطاع على النصوص التاريخية التي تذكرها أمهات كتب التاريخ والسير .

أما حوادث الاعتداء على الطالبيين باللسان والسيف والقلم منذ وفاة الرسول فتكاد لا تقع تحت حصر . فقد اتخذ الوصوليون من رجال الدين والقضاة ، والأمراء من انتقاص الطالبيين وأتباعهم وسيلة يتقربون بها من الفئة الحاكمة في العهدين الأموي ، والعباسي !! وقد شجعتهم الفئة الحاكمة بدورها على ذلك ، وفي معرض التحدث عن هذا الجانب من جوانب الموضوع يقول أحد المؤرخين[2] :

« روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث قال :

كتب معاوية إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٩٧ وذكر هذا الخبر أحمد ابن أبي طاهر صاحب كتاب « تاريخ بغداد » في كتابه مسنداً .

(٢) ابن ابي الحديد شرح النهج ٣ / ١٦ الطبعة المصرية الأولى .

ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته .

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق : ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته والذين يرون مناقبه وفضائله فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل واسمه ، واسم أبيه وعشيرته ؟ ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه إليهم من الصلات . . ثم كتب إلى عماله : إن الحديث عن عثمان قد كثر . . . فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وأتوا بمناقض له في الصحابة . . فقرأت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها . . ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة » .

لقد مر بنا الاستفسار عن العوامل التي حالت بين علي وبين ارتقائه منبر النبي بعد وفاته مباشرة ، وللإجابة على ذلك ينبغي لنا أن نستعرض صفات الإمام منذ نشأته إلى وفاة الرسول ومواقفه من الرسول ، ومن الإسلام ، وموقف الرسول منه في حالتي السلم والحرب ، عسانا نعثر على مفتاح قفل الخلافة .

إننا نحاول بعبارة أخرى أن نجيب عن السؤال التاليين :

هل كان الإمام كفؤاً للخلافة بعد الرسول ؟ وإذا كان كذلك فما الذي حال بينه وبينها ؟ .

والبحث في الشق الأول من هذا الموضوع ـ أهلية الإمام للخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ـ يستلزم التطرق إلى ظروف ملازمته للدعوة الإسلامية منذ نشوئها . ولا بد في هذه المناسبة من الإلمام إلى موقف أبويه من النبي ومن رسالته قبل ذكر مواقفه هو من الرسول ومن الإسلام في حالتي السلم والحرب . وبما أن مواقف أبي طالب وزوجه فاطمة بنت أسد من النبي معروفة لدى من لهم أدنى إلمام بتاريخ الرسول فإننا سنكتفي بذكر نماذج من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر : ذكر ابن هشام[1] بصدد التحدث عن صد أبي طالب كفار قريش في صدر الدعوة الإسلامية عن

---

(١) سيرة النبي محمد ١ / ٢٧٦ ـ ٢٧٩ .

البطش بالرسول « لما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب : عتبة ، وشيبة إبنا ربيعة ابن عبد شمس ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية . فقالوا : يا أبي طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه . . فنكفيكه ؟ فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً . ثم إنهم مشوا له ثانية فردهم . ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله . مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن مغيرة فقالوا : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد . أنهد فتى في قريش وأجمله . . فخذه وأسلم إلينا ابن أخيك . فقال لبئس ما تسومونني أتعطونني أبنكم أغذوه وأعطيكم ابني تقتلونه ! » وقال ابن سعد[1] : « لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله . وكان يحبه حباً شديداً لا يحب ولده . وكان لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه . وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط » ويذكر ابن الأثير[2] في حديثه عن موقف أبي طالب في حماية الرسول ضد قريش : إن قريشاً عندما رأت الإسلام يفشو ويزيد . . . وعاد إليهم عمرو ابن العاص . . من النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده ، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبتاعوا منهم شيئاً . فكتبوا بذلك صحيفة ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم . . فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً . فأعتزل الناس بني هاشم وبني المطلب . وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو طالب ومن معهما بالشعب ثلاث سنين » فأكلت الأرضة الصحيفة وأخبر النبي عمه بذلك ، « وكان أبو طالب لا يشك في قوله فخرج من الشعب إلى الحرم فأجتمع الملأ من قريش » فأخبرهم أبو طالب ان الأرضة أكلت صحيفتهم . . وأنشد :

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محا الله منهم كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من ناطق الحق معرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

---

(١) الطبقات الكبرى ١ / ١٠١ .
(٢) الكامل في التاريخ ٢ / ٥٩ - ٦٢ .

فلا عجب أن أشتد كفار قريش عليه بعد وفاة عمه أبي طالب حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نالت قريش شيئاً مني أكرهه حتى مات أبو طالب »[1] .

والخلاصة كما يقول ابن خلدون[2] : « أن عبد المطلب جد النبي توفي بعد ولادته بثمان سنين وعهد به إلى أبنه أبي طالب فأحسن ولايته وكفالته . وكان شأنه في رضاعه وشبابه ومرباه عجباً . وتولى حفظه وكلاءته من مفارقة أحوال الجاهلية وعصمته[*] من التلبس بشيء منها » . ثم توفي « أبو طالب وخديجة ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فعظمت المصيبة ، وأقدم عليه سفهاء قريش بالإذاية والاستهزاء ، وإلقاء القاذورة في مصلاه »[3] .

ذلك ما يتعلق بأبي طالب وموقفه من الرسول ومن دعوته .

أما موقف السيدة فاطمة أم علي فيتضح بما صنعه الرسول عند وفاتها حزناً عليها لما أبدته من عطف عليه وعلى رسالته . فقد تقدم رسول الله عند موت فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب وأم علي وأسبق نساء العالمين إلى الإسلام بعد خديجة فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل إلى القبر فسواه بيده الكريمة فأضطجع إلى جوارها فيه »[4] .

ذلك ما يتعلق بالبيت المشبع بالعطف على النبي والإيمان برسالته حيث نشأ ابن أبي طالب وترعرع متنقلاً بينه وبين بيت الرسول نفسه وفي كنف السيدة خديجة أم المؤمنين .

أما إذا نظر الباحث إلى مواقف الإمام نفسه في حماية الدعوة الإسلامية وصاحبها من مؤامرات كفار قريش ، تلك المواقف التي دلت على كفاءته لتسلم خلافة الرسول بعد وفاته من جهة ، والتي أهلته بدورها لتسنم ذلك المنصب

---

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ٢ / ٥٩ - ٦٣ .

(٢) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ٢ / ١٧١ .

(*) يذهب الشيعة الإمامية الى أن عصمته النبي (ص) ذاتية « الناشر » .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٤) عبد الفتاح عبد المقصود : الإمام علي بن أبي طالب ١ / ٧٠ .

الرفيع من جهة أخرى . فإنه يجد تلك المواقف المشرفة كثيرة العدد « تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح » بحيث يصبح أمر الموازنة بينها « لأختيار بعضها للاستشهاد به » من أصعب الأمور . وقبل أن نتطرق إلى ذكر أهمها يجمل بنا أن نشير إلى الظروف الخاصة التي ربطت بين علي والإسلام من جهة ، وبينه وبين النبي من جهة أخرى ، وبقدر ما يتعلق الأمر بصلة الإسلام بعلي ، أو صلة علي بالإسلام يمكننا أن نقول مع العقاد : « لقد ملأ الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ، ولم يخالطه شوب بكدر صفاءه ، ويرجع به إلى عقابيله ، فبحق ما يقال : أن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وأن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه »[1] .

فقد بعث النبي على ما يقول الدكتور طه حسين : وعليٌّ عنده صبي فأسلم . . . وظل بعد إسلامه في حجر النبي يعيش بينه وبين خديجة أم المؤمنين وهو لم يعبد الأوثان قط . . . فأمتاز بين السابقين الأولين بأنه نشأ نشأة إسلامية خالصة . وامتاز كذلك بأنه نشأ في منزل الوحي بأدق معاني هذه الكلمة »[2] .

أما الآثار العميقة التي تركتها هذه البيئة الإسلامية الصافية في خلق الإمام ـ في عقله ، وقلبه ، ولسانه ، ويده ـ فتعتبر من أوليات الأمور المسلم بها عند الباحثين الحديثين في علم النفس ، وعلم الاجتماع . وأما أروع مواقفه في نصرة الإسلام ونبيه وصدى ذلك عند الرسول وموقف الرسول منه فيتجلى فيما يلي :

١ ـ في مبيته في فراش النبي يوم أزمع كفار قريش على قتله ، الأمر الذي اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة . وفي معرض التحدث عن ذلك يقول ابن هشام : إن رسول الله أمر علياً قبل هجرته أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر بعد أن أخبره بخروجه من مكة تفادياً لبطش كفار قريش ، أى أن قريشاً بعبارة أخرى لما علمت « أن رسول الله قد صار له شيعة وأنصار من غيرهم . . . وأنه مجمع على اللحاق بهم . . . تشاوروا ما يصنعوه في أمره ، واجتمعت لذلك مشيختهم في دار الندوة عتبة ، وشيبة وأبو سفيان من بني أمية . . فتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم ، ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم

---

(١) عبقرية الإمام : للعقاد ص ١٣ .

(٢) الفتنة الكبرى : عثمان بن عفان ص ١٥١ .

فتىً شاباً جلداً فيقتلونه جميعاً فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم . واستعدوا لذلك من ليلتهم . . . فلما رأى إرصادهم على باب منزله أمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده »[1] .

وقد أمر النبي علياً « أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . . . فأقام علي بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع . . . حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله »[2] فقطع الإمام المسافة بين مكة والمدينة وحده ماشياً حتى ورمت قدماه[3] .

٢ ـ مؤاخاة الرسول له حين آخى بين اصحابه من المهاجرين والانصار حيث أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : هذا أخي »[4]

٣ ـ في دفاعه عن الإسلام ونبيه ـ أثناء حروبه ضد الكفار ـ وبخاصة في موقعة أُحُد حيث تعرض الرسول ورسالته لأعظم محنة عسكرية . . . وقد ناول علي سيفه لفاطمة عند رجوعه من أُحُد قائلاً :

« فوالله لقد صدقني اليوم . . كما صدق سهل بن حنيف سيفه كذلك على ما ذكر الرسول ، ثم أنشد يقول :

أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بمليم
لعمري لقد قاتلت في حب أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي بكفي كالشهاب أهزه ... أجدُّ به من عائق وحميم[5]

٤ ـ في إرساله من قبل النبي إلى مكة عندما نزلت سورة براءة . . « حدثني محمد ابن الحسين قال :

---

(١) سيرة النبي محمد : لابن هشام ٢ / ٩٥ .
(٢) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ٢ / ١٨٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ / ٧٥ .
(٤) ابن هشام : سيرة النبي محمد ٢ / ٩٥ ، ٩٨ ، ١١١ .
(٥) الطبري : « تاريخ الأمم والملوك » ٣ / ١٥٤ والمسعودي « مروج الذهب » ٢ / ٢٨٤ .

حدثنا أحمد بن المفضل قال : حدثنا أسباط عن السدي قال :

«لما نزلت هذه الآيات إلى رأس الأربعين يعني : من سورة براءة فبعث بهن رسول الله مع أبي بكر وأمره على الحج ، فلما صار فبلغ الشجرة من ذي الحليفة أتبعه بعليٍّ فأخذها منه . فرجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء ؟؟ قال : لا ، ولكن لا يبلغ عني غيري أو رجل مني . . . »[1] .

٥ ـ في خروجه إلى اليمن مبعوثاً من قبل النبي « وكان أرسل قبله خالد ابن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . فأرسل النبي علياً وأمره أن يعقل خالداً ومن سار من أصحابه ففعل . وقرأ عليٌّ كتاباً من رسول الله على أهل اليمن ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد . . . »[2] .

٦ ـ في موقف النبي منه في غزوة تبوك حيث خلفه على أهله في المدينة عندما تخلف فيها عبد الله بن أبي المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق»[3] . وقد قال الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج في صحيحه[4] :

« حدثنا يحيى بن يحيى التميمي وأبو جعفر محمد بن الصباح وعبد الله القواريري وسريج بن يونس . . عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال :

قال رسول الله لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي .

وحدثنا أبو بكر بن شيبة عن سعد بن أبي وقاص قال :

خلف رسول الله علياً في غزوة تبوك . فقال : يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ؟ قال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي ؟ » .

---

(١) الطبري : « تاريخ الأمم والملوك » ٣ / ١٥٤ .
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٢ / ٢٥ .
(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٢ / ٧٠
(٤) صحيح مسلم ٢ / ٣٢٣ .

٧ ـ في موقف النبي منه في غزوة خيبر . قال الإمام مسلم في صحيحه :

« حدثنا قتيبة بن سعيد . . عن أبي هريرة أن رسول الله صلىّ الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله . . قال عمر بن الخطاب :

ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ ، قال : فتساورت لها رجاء أن أدعى لها قال : فدعا رسول الله صلىّ الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فأعطاه إياها »[1] .

وهناك أمور أخرى تتصل بأهلية الإلمام لتولي منصب الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة لا بد من ذكرها في هذه المناسبة :

١ ـ تفهمه جوهر الدين الإسلامي وإلمامه به من جميع أطرافه وإيمانه به إيماناً صافياً ، بيده ، وقلبه ، ولسانه ، فقد كان عليٌّ محظوظاً من دون الصحابة بخلوات كان يخلوها مع رسول الله « ص » لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما ، وكان كثير السؤال للنبي عن معاني القرآن . . . وإذا لم يسأل ابتدأه النبي بالتعليم والتثقيف ، ولم يكن أحد من اصحاب النبي كذلك ، بل كانوا أقساماً ، فمنهم من يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبون أن يجيء الإعرابي أو الطارىء فيسأله وهم يستمعون .

ومنهم من كان بليداً بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث .

ومنهم من كان مشغولاً عن طلب العلم ، وفهم المعاني إما بعبادة أو دنيا .

ومنهم المبغض الشانىء الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته بالسؤال عن دقائقه وغوامضه »[2] .

ب ـ إشراك الرسول إياه في تنفيذ أوامره المهمة التي تتصل بجوهر العقيدة الإسلامية واعتماده عليه في المواقف الحاسمة من تاريخ التبشير بالدعوة الإسلامية ، فكأن الرسول أراد بذلك تدريبه وتهيئته لتولي شؤون المسلمين من بعده .

---

(١) « صحيح مسلم » ٢ / ٣٢٤ .

(٢) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ٣ / ١٧ طبعة مصر الأولى .

يقابل ذلك من الناحية الثانية أن الرسول لم يعهد لكبار الصحابة وفي مقدمتهم ـ أبو بكر وعمر ـ بأمثال تلك الأمور الخطيرة .

ومما يؤيد وجاهة ما ذهبنا إليه أن أبا بكر قد قام أثناء خلافته بعمل مشابه لما ذكرناه فيما يتصل بعمر بن الخطاب الذي ولي الخلافة من بعده فقد هيأه إلى تسنم كرسي الخلافة من بعده عن طريق إيداعه له كثيراً من الأمور المهمة المتصلة بسياسة الدولة العليا .

ج ـ وهناك أمر ثالث يتصل بترشيح الرسول علياً للخلافة من بعده ، ويتعلق هذا الأمر بقضية جيش أسامة . وتفصيل ذلك على ما يقول ابن سعد[1] :

« ولما كان يوم الأثنين لأربع ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله : أمر رسول الله بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد فقال :

« سر إلى موضع أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحاً على أهل أبني[2] وحرق عليهم وأسرع السير وتسبق الأخبار ، وإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك » :

فلما كان يوم الأربعاء بدىء برسول الله فحم وصدع . فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءاً بيده ، ثم قال :

« أغر بأسم الله ، في سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله » .

فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي وعسكر بالجرف[3] ، مع وجوه المهاجرين والأنصار ، فهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . . . فتكلم قوم وقالوا : أيستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فغضب الرسول غضباً شديداً ، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة . . . فصعد المنبر . . . وقال :

أما بعد أيها الناس فما مقالة قد بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٣ ، ٤

(٢) كذا وجدناه في المطبوع .

(٣) الجرف بالضم ثم السكون محل بينه وبين المدينة ثلاثة أميال من ناحية الشام ، قال : في مراصد الاطلاع طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة ١ / ٣٢٦ . « الناشر » .

طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله . وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً ، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة إن كان لمن أحب الناس إلي وإنهما لمحلان لكل خير ، فأستوصوا به خيراً إنه من خياركم » .

ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول . . . وثقل رسول الله وجعل يقول :

« أنفذوا بعث أسامة » .

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله وجعه فدخل أسامة معسكره والنبي مغمور مغمى عليه . . . فطأطأ أسامه فقبله ورسول الله لا يتكلم فجعل يرفع يديه الى السماء ثم يضعها على أسامه ، قال :

فعرفت أنه يدعو لي ، ورجع أسامة إلى معسكر فأمر الناس بالرحيل ، فبينما هو يريد الركوب . . . توفي رسول الله . . . » أي إن الرسول قد بعث قبيل وفاته ببضعة أيام بعثاً إلى الشام وأميرهم أسامة بن زيد مولاه . . . وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون منهم أبو بكر وعمر ، فبينما الناس على ذلك ابتدأ رسول الله مرضه . . . فتأخر مسير أسامة . . فخرج النبي عاصباً رأسه من الصداع . . . وأمر بإنفاذ جيش أسامة . . .

وخرج أسامة فضرب بالجرف : العسكر وتمهل الناس وثقل رسول الله . . . ولم تشغله شدة مرضه عن إنفاذ أمر الله »[1] أي أن الرسول عند رجوعه من حجة الوداع على ما يقول ابن خلدون[2] :

« ضرب على الناس . . . بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاه أسامة بن زيد بن حارثة . أمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين ومشارم الشام فتجهز الناس وأوعب معه المهاجرون الأولون ـ فبينما الناس على ذلك ابتدأ رسول الله بشكواه التي قبضه الله فيها . . .

---

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ٢ / ٢١٥ .

(٢) كتاب « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ٢ / ٢٦٥ .

وخرج رسول الله عاصباً رأسه من الصداع وقال :

لقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة ، إن يطعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه لحقيقاً بالإمارة وإنه لحقيق بها . إنفروا » .

غير أن جيش أسامة لم يصدع بأمر النبي على الرغم من إلحاح الرسول على تنفيذ أمره .

وقد ذكر أسامة نفسه أنه : « لما ثقل رسول الله هبطت أنا ومن معي إلى المدينة فدخلنا عليه وقد أصمت[1] فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ فعلمت أنه يدعو لي »[2] .

والغريب في الأمر هو : إلحاح الرسول على ضرورة مسير جيش أسامة إلى الوجهة التي وجهها إياه على الرغم من مرضه ، وأعجب من ذلك هو تلكؤ القوم وتملصهم عن تنفيذ أمر النبي ، فكأن هناك أمراً خفياً يتنازع عليه الطرفان .

ترى لماذا ألح الرسول على إنفاذ الجيش في تلك اللحظة الحاسمة من حياته ؟ .

لماذا وضع في الجيش كبار الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر واستثنى علي أبن أبي طالب ؟ .

ولماذا جعل أسامة قائداً للجيش رغم احتجاج كبار الصحابة ؟ .

لماذا أحجم القوم عن تنفيذ أوامره ؟ .

هل رغب الرسول في إخلاء الجو لعلي ؟ وشعر القوم بذلك فأحجموا ؟ .

تلك أسئلة محيرة دون شك .

ثم هل هناك من صلة بين مسألة جيش أسامة وبين رواية الدواة

---

(١) هذا مخالف لرأي اكثر العامة والخاصة ، لأنهم ذكروا أن النبي (ص) كان يتكلم الى حين وفاته .
(٢) ابن الأثير المصدر نفسه .

والقرطاس ؟ .

ومما يجعل هذا الأمر المعقد أكثر تعقيداً ، هو: أن الرسول قد فقد قدرته على النطق قبيل وفاته[1] وأثناء الانشغال بجيش أسامة ، ولكن إشارته باليد إلى أسامة أبلغ وسيلة للتعبير عن رغبته في إنفاذ ذلك الجيش الذي لو نفذ لتغير مجرى التاريخ الإسلامي تغيراً كبيراً .

---

(١) راجع تعليقنا على هامش الصفحة المتقدمة من أن النبي (ص) لم يكن ليفقد قدرته على الكلام . « الناشر » .

الفصل الثاني

حـــديث السقيـــفة

أ ـ أبو بكر الصديق

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول :

إن علياً كان مهيئاً للخلافة بعد الرسول ، هذا إذا نظرنا للخلافة من جوانبها الزمنية ، وأن صلاتة بالرسول وبالإسلام ، وصلات الإسلام والرسول به تؤهله لذلك .

ولو احتج المسلمون أثناء السقيفة بعد وفاة النبي : « أن علياً كان أقرب الناس إليه ، وكان ربيبه ، وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه . بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه وأبا عقبه ، وكان صاحب لوائه ؛ وكان خليفته في أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبي « ص » نفسه .

لو قال المسلمون هذا كله واختاروا علياً بحكم هذا كله لما أبعدوا ولا أنحرفوا .

وكان كل شيء يرشح علياً للخلافة . . . قرابته من النبي ، وسابقته في الإسلام ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط ، وشدته في الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه »[1] .

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

وقد لخص ابن حجر العسقلاني أهم خصائص الإمام حين قال :[1] .

علي بن أبي طالب . . . أول الناس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم ، ربي في حجر النبي ، ولم يفارقه ، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك ، فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة :

ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى . . .

وكان لواؤه بيده في أكثر المشاهد . ولما آخى النبي أصحابه قال له : أنت أخي . ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد بن حنبل لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي .

وقال غيره : كان سبب ذلك بغض بني أمية له . فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته . وكلما أرادوا إخماده وهددوا من حدث بما فيه لا يزداد إلا انتشاراً . . .

ولم يزل بعد النبي متصدياً لنصرة العلم والفتيا . . .

ومن خصائص علي قول الرسول يوم خيبر :

لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . . . فدفعها لعلي .

فقال عمر : ما احببت الإمارة إلا ذلك اليوم . . .

وبعثه يقرأ براءة على قريش وقال : لا يذهب إلا رجل مني وأنا منه . . .

وقال : علي وليي في الدنيا والآخرة ، وأخذ رداء فوضعه على عليٍّ وفاطمة وحسن وحسين ، وقال :

﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . . ﴾ [الآية][2]

ولبس ثوبه ونام في مكانه، وكان المشركون قصدوا قتل النبي . . .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٢) الاحزاب : ٣٣ .

وقال :

أنت ولي كل مؤمن بعدي . وسد الأبواب إلا باب عليّ[1] فيدخل المسجد جنباً ، وهو طريقه ليس له طريق غيره ، وقال :

من كنت مولاه فعلي مولاه . . . ولما نزلت هذه الآية : ﴿ **قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم . . .** ﴾ [الأية][2] دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي .

وأخرج الترمذي بإسناد قوي عن عمران بن حصين في قصة قال فيها رسول الله : ما تريدون من علي ؟ إن علياً مني وأنا من علي ، وهو ولي كل مؤمن بعدي » .

فما الذي حال إذن دونه ودون ارتقاء منبر النبي بعد وفاته مباشرة ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تستلزم أن يتطرق الباحث إلى ذكر ظروف وفاة الرسول ؛ وانشغال الإمام بتغسيله وتجهيزه ودفنه والصلاة عليه من جهة ، وبأجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة وموقف عمر بن الخطاب من ذلك كله من جهة أخرى ، وإلى قول ذكره عمر ، على ما يظن ، وتردد على ألسنة بعض القرشيين يتضمن كرههم أن تجتمع النبوة والخلافة للهاشميين .

وخلاصة الأمر أن الرسول توفي في داره بالمدينة سنة ١١ هـ ، وانشغل عليٌ بأمر تفسيله وتكفينه والصلاة عليه . وكان الجو السياسي خارج دار النبي آنذاك نشطاً مملوءاً بالمفاجآت والأحداث الجسام ، وفي مقدمتها مسألة خليفة الرسول .

اجتمع عمر بأبي عبيدة بمسجد المدينة وتشاورا في أمر الخلافة ، واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بني ساعدة يشاور الأوس والخزرج في أمر الخلافة ايضاً . واجتمعت في أماكن شتى زمر أخرى تتحدث في هذا الأمر الخطير . على حين أن الإمام علياً قد لازم دار النبي ، وكان منهمكاً بإعداد الجثمان لوضعه في

---

(١) حديث سد الأبواب الا باب علي ذكره السمهودي في وفاء الوفاء . « الناشر » .
(٢) آل عمران : ٦١ .

مثواه الاخير يساعده نفر من أهل البيت المفجوعين ، ومنهم أبو بكر[1] .

ومما يلفت النظر أن أبا بكر قد قدم من السنح[2] بعد أن بلغه خبر وفاة الرسول فدخل دار النبي في حين أن عمر بن الخطاب قد بقي خارج الدار .

وفي زحمة تلك الظروف طرق باب دار النبي رجل أوفده ابن الخطاب يدعو أبا بكر لمقابلة عمر للتشاور معه في أمر عظيم ، فخرج ابو بكر والتقى بصاحبه وسارا معاً إلى السقيفة ، حيث اجتمع الأوس والخزرج بسعد بن عبادة .

وأستمر الإمام المفجوع منهمكاً في أمر الجثمان والألم يحز نفسه على وفاة الرسول .

وساور العباس عم النبي قلق شديد يتصل بإرب النبي ، وبالمهمة السرية التي قدم عمر متكتماً من أجلها للتداول مع أبي بكر دون سواه ممن في الدار ، فهمّ بمبايعة الإمام .

غير أن علياً رفض ذلك بشدة إحتراماً لجلال الموقف الرهيب . . .

وتقدم أبو سفيان لمبايعة الإمام بالخلافة أيضاً فنهره . . . ثلاث مرات . .

ويلوح للباحث أن اجتماع الانصار بأبن عبادة في السقيفة لم يكن في ابتدائه رامياً للاستئثار بتراث النبي بقدر ما كان رامياً لتقرير منزلتهم في العهد الجديد .

ومهما يكن الأمر فقد رافق اجتماع السقيفة شيء من التأزم والامتعاض ، وبخاصة عندما حضره أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح ، غير أنه انتهى بمبايعة أبي

---

(١) ابو بكر لم يكن من المفجوعين بوفاة النبي (ص) ليساعد الإمام علي في اعداد جثمان الرسول في مثواه الاخير وانما دخل دار الرسول (ص) ليتطلع الأخبار ويدبر أمر الخلافة راجع كتابنا مع رجال الفكر في القاهرة .

(٢) السنح - بالضم ، ثم السكون ، وآخره حاء مهملة احدى محال المدينة . كان بها منزل أبي بكر ، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج ، بعوالي المدينة ١ هـ « مراصد الاطلاع » لابن عبد الحق البغدادي ٢ / ٧٤٥ طبعة عيس الحلبي بالقاهرة . « الناشر » .

بكر على الشكل المعروف .

وخلاصة ذلك[1] أن الأنصار من الأوس والخزرج ـ وفيهم سعد بن عبادة الذي كان مريضاً حينذاك ـ قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة للتداول في تقرير مصيرهم في العهد الجديد فقال سعد بن عبادة لبعض بنيه :

انه لا يستطيع أن يسمع المجتمعين صوته لمرضه ، وأمره أن يتلقى منه قوله ويردده على مسامع الناس ، فكان سعد يتكلم ويستمع إليه أبنه ، ويرفع صوته بعد ذلك .

قال سعد : يخاطب الحاضرين : « إن لكم سابقة إلى الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . . . إن رسول الله لبث في قومه بضع عشرة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان . فما آمن من قومه إلا قليل ، حتى أراد بكم خير الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بدينه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه ،و أثقلهم على عدوه من غيركم . ثم توفاه الله وهو عنكم راضٍ . . . فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به » .

وأتى الخبر عمر فأتى باب منزل النبي واستدعى أبا بكر ـ كما ذكرنا ـ وخرجا إلى السقيفة ، وخطب أبو بكر في المجتمعين فقال :

« إنا معاشر المسلمين المهاجرين أول الناس إسلاماً . ونحن عشيرة رسول الله . . وأنتم أنصار الله . . . واخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين ، وفيما كنا فيه من خير فأنتم أحب الناس إلينا وأكرمهم علينا . . . وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة ، وأحق الناس أن لا يكون ، انتقاض هذا واختلاطه على أيديكم ، وأنا أدعوكم إلى أبي عبيدة : أو عمر ، فكلاهما قد رضيت لهذا وكلاهما أراه له أهلاً ، فقال عمر وأبو عبيدة : ما ينبغي لأحد من الناس ان يكون فوقك . . فأنت أحق الناس بهذا الأمر . . فقام الحباب بن المنذر من الجموع فقال :

---

(١) هذه الخلاصة موجودة في أمهات كتب التاريخ الإسلامي ، وهي هنا ملخصة عن الطبري : تاريخ الامم والملوك .

« يا معاشر الأنصار أملكوا عليكم أيديكم . . . والله ما عبد الله علانية إلا عندكم ، فأنتم أهل الإيواء والنصرة . وإليكم كانت الهجرة . . . فإن أبى هؤلاء فمنا أمير ومنهم أمير » .

فقال عمر : هيهات .

فلما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اجتمعت عليه الانصار من تأمير سعد ابن عبادة ، وكان حاسداً له : وكان من سادات الخزرج قام فقال :

« أيها الانصار إنا وإن كنا ذوي سابقة فإنا لم نرد بجهادنا ، وإسلامنا إلا رضا الله وطاعة نبينا . . . إن محمداً رجل من قريش وقومه أحق بميراث أمره . . . فأتقوا الله ولا تنازعوهم » .

فقام أبو بكر وقال : « هذا عمر وأبو عبيدة ، بايعوا أيهما شئتم ، فقالا : « والله لا نتولى هذا عليك . . . أبسط يدك نبايعك » .

فلما بسط يده وذهبا يبايعانه . . . سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه . . . فناداه الحباب ابن المنذر :

« يا بشير عقق عقاق ، والله ما اضطرك إلى هذا الأمر إلا الحسد لإبن عمك » .

ولما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع قام أسيد بن حضير وهو رئيس الأوس فبايع حسداً لسعد أيضاً ومنافسة له أن يلي الأمة فبايعت الأوس كلها لما بايع أسيد .

وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل إلى منزله فأمتنع عن البيعة .

ثم خرج إلى الشام فاغتيل في أواخر خلافة أبي بكر ، وقد أتهم خالد بن الوليد بتدبير مؤامرة الاغتيال .

وبعد الانتهاء من ذلك قصد البراء بن عازب دار النبي وفيها جثمان الرسول وحوله عليٌّ وأهل بيته فخاطبهم قائلاً :

« لقد شهدت أبا بكر بعد السقيفة بعيني : إلى يمينه عمر ، وإلى يساره ابن الجراح لا يمر بهم احد ولا يمرون بأحد إلا قدموا يده ـ شاء أم أبى ـ فمسحوها على يد أبي بكر »[1] .

تلك قصة السقيفة ، وهي قصة لا تخلو من أمور وأحداث تسترعي انتباه الباحثين فمن يتصفح اجتماع السقيفة بدقة وأمعان ويتأمل النتيجة التي أدى إليها ذلك الاجتماع الذي أسفر عن ارتقاء أبي بكر منبر النبي لا يسعه أن يغفل الدور الحاسم الذي لعبه عمر بن الخطاب في هذا الموضوع الخطير .

ولا ندري لماذا أحجم ابن الخطاب عن دخول دار النبي والمساهمة في تهيئة الجثمان ووضعه في مثواه الأخير .

ولماذا أحجم ثانية عن دخول الدار « حينما رأى اجتماع الأوس والخزرج في السقيفة ، للاتصال مباشرة بأبي بكر ؟ .

لماذا فضل عمر أن يمكث بباب دار النبي ويرسل شخصاً غيره يدعو أبا بكر ليقابله خارج الدار ؟ .

ولماذا اقتصرت المشاورة على أبي بكر دون سواه من أهل البيت ومن أصحاب الرسول ؟ .

هل كان وجود أبي بكر داخل دار النبي وبقاء عمر خارجها طليقاً يتصل ويفاوض ، من الأمور التي وقعت مصادفة ؟ أم كان موضوعاً وفق خطة معينة أتفق عليها الرجلان .

هل بقي أبو بكر في دار النبي رقيباً على من فيها لضمان عدم مفارقتهم إياها ولمعرفة من يتصل بهم من الأشخاص الموجودين خارجها لتحديد هذا الاتصال في حالة حدوثه ، أو لمنع حدوثه بمجرد وجوده هناك ؟ .

هل هناك علاقة بين هذه الحادثة ، وبين جيش أسامة وقضية الدواة والقرطاس ؟

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود (الإمام علي بن أبي طالب) ١ / ١٤٩ .

ما هي الأمور التي تم الاتفاق عليها بين عمر ، وأبن الجراح ، عندما كانا يتناجيان في مسجد المدينة قبل أن يدعى إليهما أبو بكر ؟ .

لماذا احتج أبو بكر على الانصار بأفضلية المهاجرين ؟ .

هل كان أبو بكر يعني المهاجرين إطلاقاً ، أم الذين حضروا السقيفة ـ هو وعمر وأبو عبيدة ـ لكسب معركة الرئاسة ؟ .

وإذا كان المهاجرون أولى بميراث النبي ـ من غيرهم ـ لسابقتهم في الإسلام ولكونهم عشيرة النبي على حد قول أبي بكر ، أفلا يصبح الهاشميون أولى من قريش ؟ وعليٌّ أولى من الجميع ؟ ـ لأن مقياس الفضل ـ الذي وضعه أبو بكر في كلمته التي ذكرناها ـ كان ينحصر في السابقة إلى الإسلام وفي القرابة من النبي .

لماذا رشّح أبو بكر صاحبيه للخلافة دون سائر المهاجرين ؟ ما حقه في ذلك الترشيح ؟ .

ما أثر رضائه عن عمر ، وأبي عبيدة من الناحية الشرعية ؟ .

ألم يكن باستطاعته أن يدعو الأنصار إلى مبايعة من يرتضونه من المهاجرين إذا كان لا بد من حصر الخلافة في المهاجرين ؟

لماذا اقتصر ترشيحه على عمر ، وأبي عبيدة ؟ .

ولماذا رفض عمر وأبو عبيدة هذا الترشيح ؟ ورشحا أبا بكر ؟ .

هل حدث ذلك صدفة أم أنه كان جارياً وفق اتفاق سابق ؟ .

هل لتلك الأحداث علاقة بجيش أسامة ؟ وبمناجاة عمر وأبي عبيدة في مسجد المدينة ، وباجتماعهما بأبي بكر اثناء المسير إلى السقيفة ؟ .

أين كان المهاجرون الآخرون أثناء اجتماع السقيفة .

هل حصل التنابز بين الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ عفواً ؟ أم كانت هناك أيادٍ خفية أثارته في تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ ؟ .

هل كان باستطاعة أبي بكر أو عمر أن يقترحا على الأنصار تأجيل البت في

أمر الخلافة إلى ما بعد الانتهاء من دفنِ جثمان الرسول ؟ .

هل لذلك صلة بحديث الدواة والقرطاس ، وبجيش أسامة .

تلك أسئلة تسترعي انتباه الباحثين .

وعندي أن الإجابة عليها ذات صلة وثقى بشخصية عمر بن الخطاب ، « إن الذي يؤخذ على ابن الخطاب حقاً أنه دعا أبا بكر من دار النبي ولم يدع معه أحداًمن آل الرسول . . . وأنه وضع أبا بكر في كفة الترجيح دون مشورة رجل واحد غير أبي عبيدة ابن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها ، وبألسنتهم يجري عليها الكلام رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه بالإسلام . . .

ولقد كانت في الرجل دفعة لا مراء ، عرفت فيه إبان إسلامه وشركه . . . استبدت به جاهليته ذات ليلة . . فأقسم ليمشين الى محمد فيقتله . . . تلك كانت دفعة عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الإسلام . . . ولكنه لم يأت عليها . . . حتى في حضرة الرسول كانت تملكه . . .

وكذلك كان يوم الحديبية . . فإن عمر لم يتحرّ مشورة رجل واحد من المسلمين قبل أن يبعث رسوله إلى دار النبي يدعو صاحبه إليه . . . لم يتحرَّ مشورة مسلم واحد في ترشيح الرجل الذي ستصير إليه قيادة الإسلام »[1] .

* * *

لقد مر بنا وصف مجمل للظروف التي أحاطت بوفاة الرسول وبيعة أبي بكر .

وهناك أمر آخر يتعلق أشد التعلق بموضوع تحويل الخلافة من عليٍّ أشار إليه الجاحظ فيما يتصل بموقف زعماء قريش من علي بعد وفاة الرسول لا بد من ذكره في هذه المناسبة .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ١٨٤ .

فالإمام في حروبه مع النبي ضد قريش كان قد وترها كما يقول الجاحظ :

« وسفك دماءها وكشف عن منابذها . . . وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد في النفوس . . هب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً . . .

وقد قتل واحد من المسلمين أبنك أو أخاك ثم أسلمت ، أكان إسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنآنه ؟ . . .

هذا إذا كان الإسلام صحيحاً . . لا كإسلام كثير من العرب ـ فبعضهم تقليداً ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفاً من السيف ، وبعضهم عن طريق الحمية والانتصار لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه .

وأعلم أن كل دم أراقه رسول الله بسيف عليٍّ وبسيف غيره فإن العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعليٍّ وحده لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا عليٌّ وحده »[1] .

يتضح مما ذكرنا أن الذي حال بين علي والخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة، إذا استثنينا النص على وصيته الذي يقول به فريق من المسلمين ، ليس هو شيئاً متعلقاً بأهليته لتحمل مسؤ ولية هذا المنصب الخطير ولكنه كان ، كما رأينا ، نتاجْ ظروف اجتماعية خاصة نتجت عن انشغال الإمام بجثمان الرسول وعن تنازع بعض كبار المهاجرين والأنصار للاستئثار بتراث الراحل العظيم .

ولو أنصف الناس حق الإنصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول . . . كان ذلك أدنى إلى الصواب ـ إن لم يكن هو الصواب ـ أن يترك القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ، ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عي ونهم مثواه »[2] . . ومهما يكن من الأمر فقد نحى الإمام علي عن الخلافة ، ولكنه مع ذلك ، تعاون مع أبي بكر بقلبه ولسانه ويده في جميع الأمور التي تتصل بجوهر الإسلام والمحافظة عليه ، إستمع إليه يقول :

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٢٨٣ طبعة أولى .
(٢) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ١٨٤ .

« أما بعد ، فإن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين . . . فلما مضى تنازع المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عني من بعده ، فما راعني إلا انثيال الناسِ على فلان[1] . يبايعونه . فأمسكت بيدي حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام . . .

فخشيت أن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل »[2] .

ولم يختلف الإمام مع أبي بكر أو مع الذين جاؤوا من بعده إلا في الأمور التي ساقه اجتهاده الشخصي إليها حرصاً على الإسلام كذلك .

ويتجلى كبر نفس الإمام في هذا الباب إذا تذكرنا بعض المواقف الغليظة التي وقفها منه أبو بكر في صدر خلافته ، ربما بتأثير من عمر ، وبخاصة في قضية ميراث فدك :

« فقد سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب وهو يسير إلى دار فاطمة . . . لطلب البيعة لأبي بكر . وهل على ألسنة الناس عقال يمنعها أن تروي قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة وفيها عليٌّ وصحبه !! »[3] .

وخلاصة قصة فدك : أن فدك قرية حجازية قريبة من المدينة ، سكنها اليهود منذ زمن بعيد وعمروها وزرعوها .

وفي السنة السابعة للهجرة أعلن سكانها خضوعهم للرسول ـ دون حرب ـ فأصبحت فدك خالصة للنبي من دون المسلمين وفق منطوق الآية الكريمة : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾[4] .

وقد وهب الرسول فدك في حياته لابنته فاطمة ـ بعد أن غرس فيها بيده

---

(١) كناية عن أبي بكر بن أبي قحافة .
(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٦٤ : ١٦٥ الطبعة الأولى بمصر .
(٣) عبد الفتاح عبد المقصود : الإمام علي بن أبي طالب ١ / ٢١٦ .
(٤) الحشر : ٦ .

الكريمة إحدى عشرة نخلة . فكانت السيدة فاطمة هي التي تتصرف بفدك منذ أن وهبها لها أبوها حتى وفاته حيث انتزعها منها أبو بكر بعد توليته الخلافة مباشرة .

وقد أشار إلى ذلك الإمام في إحدى رسائله إلى عثمان بن حنيف حين قال :

« بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء فشحت بها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين . . . »[1] .

فالسيدة فاطمة إذن تستحق ميراث فدك من ناحيتين . هما الميراث والنحلة .

وكان على الخليفة ـ وقد أرتأى أتنزاعها منها ـ أن يبقيها تحت تصرفها مجاملة للرسول ولها ، ويقترح ـ في حالة اختلافه معها ـ إنفاق بعض غلتها في وجوه الخير التي يتفق عليها الطرفان .

هذا إذا سلمنا جدلاً بأنها لا ترث أبيها ، وأن النبي لم يهبها إياها في حياته .

كما كان على الخليفة كذلك من الناحية القانونية العرفية ، وقد قرر أن ينتزعها من السيدة ، أن يستبقيها في يدها الى أن يثبت له عدم أحقيتها بها .

ومن الطريف أن نذكر قبل التصدي للبحث في طبيعة النزاع بين الزهراء وأبي بكر في قضية فدك ، أن فدك بقيت بيد الخلفاء الراشدين .

فلما استولى معاوية على الملك قسمها مثالثة بين مروان بن الحكم ، وعمرو ابن عثمان بن عفان ، ويزيد ابنه ـ وهو أمر على جانب كبير من الغرابة ـ غير أنها قد أصبحت خالصة لمروان في خلافته فوهبها لأبنة عبد العزيز الذي وهبها بدوره لأبنة عمر الذي ردها عند توليته الخلافة ، لأولاد فاطمة . . وكان رده إياها ، على ما يقول المؤرخون :

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٤ / ٧٨ الطبعة الأولى بمصر .

أول ظلامة ردها ، فلما ولي يزيد قبضها منهم فصارت في أيدي بني مروان ، وبقيت كذلك إلى سقوط دولتهم .

فلما جاء العباسيون ردها السفاح إلى أهلها ، ثم قبضها المنصور .

وردها ابنه المهدي ، وقبضها الهادي والرشيد .

وردها المأمون بعد أن ناظره في أمرها شيخ طاعن في السن . ثم قبضها المعتصم .

وبعد ذلك ضاعت معالمها على المؤرخين .

ويلوح مما ذكرنا أن فدك كانت وسيلة بيد الخليفة إن شاء ردها لأهلها ، وإن شاء قبضها عنهم وفق مزاجه وحالته النفسية من جهة ، وموقف الطالبيين في زمانه من الأحداث السياسية العامة في الدولة من جهة أخرى .

ولما كان إرجاع فدك إلى ورثة السيدة فاطمة قد حصل في عهد المأمون بشكل يدعو إلى التأمل ويشير بصراحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، إلى حق السيدة في فدك لذلك نرى إثباته هنا بالشكل الذي ذكره البلاذري[1] :

« ولما كانت سنة عشرة ومئتين أمر المأمون . . . برد فدك إلى ولد فاطمة وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة :

أما بعد ، فإن المؤمنين بمكانة من دين الله وخلافة رسوله والقرابة به ، أولى من استن سنته ، ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته .

وقد كان رسول الله أعطى فاطمة بنت رسول الله فدك وتصدق بها عليها . وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه . . .

فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ويسلمها إليهم تقرباً إلى الله بإقامة حقه وعدله وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته .

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٦ ، ٤٧ .

فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتابة به إلى عماله :

فلئن كان ينادي في كل موسم بعد أن قبض الله رسوله أن يذكر كل من كان له صدقة أو عدة ذلك فيقبل قوله وينفذ عدته ، أن فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها . وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك إلى : محمد بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لتولية أمير المؤمنين إياهما القيام بها لأهلها .

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وما ألهمه الله من طاعته ، ووفقه له من التقرب إليه وإلى رسوله . وأعلمه من قبلك .

وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري وأعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها إن شاء الله والسلام » .

وقد كتب ذلك في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ٢١٠ هـ وتصدى أبو بكر للرد على السيدة فاطمة[1] في موضوع فدك من ناحية الميراث إلى حديث أنفرد بذكره على ما يبدو ، هو :

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة » .

وقد أنفرد أبو بكر كذلك بذكر حديث آخر عندما اختلف المسلمون في محل دفن النبي فقال : سمعت رسول الله يقول : « ما قبض نبي إلا ودفن حيث قبض » في حين أن التاريخ ـ على ما يذكر الطبري ـ يخبرنا أن الكثيرين من أنبياء بني إسرائيل قد دفنوا في غير الاماكن التي قبضوا فيها .

---

(١) وقد امتعضت السيدة فاطمة من موقفه ، ولم تكلمه الى أن توفيت ـ بعد وفاة أبيها باثنتين وسبعين ليلة ـ وذكر البخاري في الصحيح أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم قال : فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها . « الناشر » .

وقد استغربت السيدة من ذلك أشد الاستغراب ، وكانت هي دون شك أولى من غيرها بسماعه ، لأنه يخصها أكثر مما يخص أبي بكر .

كما أن علياً لم يسمعه كذلك بدليل أن فاطمة لم تخرج إلى أبي بكر مطالبة بميراثها من فدك إلا بعلم منه وإذن منه كذلك .

ولا ندري لماذا همس الرسول بهذا الحديث إلى أبي بكر دون سائر المسلمين .

وقبل أن يصبح أبو بكر طرفاً في النزاع على هذا الميراث الذي يتصل بفاطمة وبنيها أشد الاتصال ؟ .

ومما يضعف هذا الحديث ـ بنظر فاطمة ـ أنه يتنافى هو وكثير من الآيات القرآنية الصريحة في هذا الباب .

فقد جاء في ذكر الميراث بشكل مطلق ـ دون أن يستثنى الأنبياء من ذلك قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾[1] .

وجاء في ذكر الميراث الذي وقع بالفعل للأنبياء الذين سبقوا محمداً قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ **وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين**﴾[2] .

وخاطب زكريا ربه في سورة مريم : ﴿**قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت أمرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً**﴾[3] .

لقد أشارت السيدة فاطمة الى ذلك كله في مناقشتها لأبي بكر بمحضر جماعة من الصحابة ، ثم ختمت محاورتها مع الخليفة قائلة :

---

(١) النساء ١١ .
(٢) النمل: ١٦ .
(٣) مريم : ٥ ، ٦ .

« فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك . . . فنعم الحكم الله . . . والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون . . .

يا إبن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء أظهركم ؟ .

ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ ؟ .

أخصكم الله بآية أخرج أبي منها ؟ أم تقولون : أهلي ملتين لا يتوارثان ؟ أو لست أنا وأبي من أهلي ملة واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟ » .

ولما رأت السيدة فاطمة أن الخليفة مصر على رأيه تركت الأمر وأعرضت عنه . ويلوح للباحث أن السيدة فاطمة كانت عارفة منذ البداية أن الخليفة سوف لا يعيد لها فدك ، وأنها ذهبت إليه لإلقاء الحجة عليه ، ولعل ذلك راجع إلى أنها لم تعرف من حيث الاساس بشرعية خلافته ، فالشخص الذي له القدرة والجرأة ، على سلب الخلافة من صاحبها الشرعي بنظرها لهو أقدر على سلب فدك وأمثالها !؟ .

وإذا أمعن الباحث في الحديث الذي ذكره أبو بكر في ضوء سيرة الرسول بصورة عامة أمكنه أن يقول :

إن الرسول لم يستثن نفسه من الخضوع للقواعد العامة التي جاء بها الإسلام .

فما عرف عنه أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نصلي أو لا نصوم . . . الخ » فكيف يعزل عن ميراث فدك وحده !

فهل لقضية فدك جانب سياسي ؟ .

هل قصد بذلك إخضاع السيدة فاطمة وزوجها لأوامر الخليفة لإرغامها على الاعتراف بخلافته التي قابلاها بالصدود والامتعاض ؟ .

وهل لهذا الموضوع جانب اقتصادي ؟ هل قصد بذلك حرمان علي من التمتع بواردات فدك وهي مورده الوحيد ، لكيلا يصبح مكتفياً من الناحية الاقتصادية وليصرفه ذلك عن المطالبة بالخلافة ؟ .

هل لموضوع فدك جانب مالي يتصل بوضع الدولة الإسلامية آنذاك وحاجتها إلى المال لمواجهة الذين اتهموا بالارتداد عن دفع الزكاة ؟ .

هل لموضوع فدك جانب مالي يتصل بوضع الدولة الاسلامية آنذاك وحاجتها إلى المال لمواجهة الذين اتهموا بالارتداد عن دفع الزكاة ؟ .

هل لقضية فدك جانب معنوي يتعلق بمحاولة تضعيف موقف آل النبي عند عامة المسلمين ؟ فيقال : إن النبي قد حرمهم كل شيء حتى ميراثه من فدك ؟ فتضعف حجتهم بالمطالبة بالخلافة ؟ هل لموضوع فدك أكثر من عامل واحد ؟ ثم لماذا وضع الرسول ـ إن صح الحديث الذي استشهد به الخليفة ـ صيغته بهذاا الشكل من الإطلاق بحيث جعله يشمل معاشر الأنبياء كافة ؟ ما الهدف الذي كان يرمي إليه الرسول من هذا الحديث !

هل كان يخشى أن تتصرف السيدة فاطمة بعوائد فدك في غير أوجهها السليمة ! واذا كان الأمر كذلك فلماذا وضعها تحت تصرفها في حياته !!

ويجمل بنا قبل أن نتصدى لبحث فدك من ناحية النحلة أن ننبه القارىء إلى أننا عثرنا على نقاش رائع من حيث الفكرة والأسلوب حصل بين قاضي القضاة والشريف المرتضى ذكره ابن أبي الحديد[1] الأول : ينفي أن يورث الأنبياء ، والثاني : يثبته .

يدلل الأول ـ على رأيه بأن ما ورد في القرآن لا يتضمن إلا وراثة العلم والفضل .

ويبرهن الثاني ـ على أن الإرث يتضمن المال والعقار أولاً ، ومن ثم العلم والفضل من باب التجوز ؛ وإن كلمة ميراث في اللغة ، وما يتصل بها من المشتقات تعني ميراث الأمور المعنوية من باب التجوز والاتساع ، وأن الدلالة إذا

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٧٨ ـ ١٠٣ .

دلت في بعض الألفاظ على معنى المجاز فلا يجب أن يقتصر عليه ، بل يجب أن نحمل معناها على الحقيقة التي هي الأصل إذا لم يمنع من ذلك مانع . وإذا فرضنا جدلاً أن الميراث يقتصر على العلم والفضل ، ألا يكون آل النبي ، بحكم ذلك الميراث ، أول من غيرهم بالخلافة !

ذلك ما يتصل بموضوع فدك من ناحية الميراث .

أما ما يتصل به من ناحية النحلة فقد ذكرت السيدة فاطمة لأبي بكر .

أن رسول الله قد وهبها فدك . فطلب الخليفة منها البينة على ذلك ، فقدمت له علياً ، وأم أيمن ـ مربية الرسول ـ فلم يلتفت إلى ذلك وبدا كالمتشكك في شهادة سيدة ، قمينٌ بأبي بكر أن يسموا بها عن التشكك[1] .

فليس من المتوقع أن تكذب السيدة فاطمة على أبيها بعد موته بعشرة أيام فقط ، وفي مسألة تافهة كفدك ، أو أن تكذب أم أيمن العجوز الجليلة التي رافقت الرسول من المهد إلى اللحد ـ أم أيمن التي خرجت مهاجرة إلى رسول الله من مكة إلى المدينة ، وهي ماشية وليس معها زاد ـ أم أيمن زوج زيد بن حارثة مولى النبي وأم أسامة بن زيد !! أو أن يكذب ابن أبي طالب !!

ولا ندري كيف فات أبا بكر أن يتذكر ان الله قد أنزل قرآناً في علي وفاطمة وأذهب عنهما الرجس[2]

وقد كان المتوقع أن يكتفي الخليفة برواية فاطمة وحدها كما اكتفى أبوها قبل ذلك حين نازعه أعرابي في ناقة ادعى كل منهما أنها ناقته .

فشهد خزيمة بن ثابت للرسول فأجاز شهادته وجعلها شهادتين فسمي ذا الشهادتين ، ولكن موضوع السيدة فاطمة ـ مع هذا لا يحتاج إلى شهود ـ ذلك لأنها روت رواية عن أبيها ، كما روى أبو بكر رواية أخرى .

وأن السيدة فاطمة لم تطلب منه البينة على ما ادعاه على الرغم من شكها في صحته ـ أما الشهود فموقعهم في الدعوى .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ٢١٦ .
(٢) انظر : الأحزاب٣٣ .

إستمع إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فأكتبوه . . . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان**﴾[1]

والحجة التي نستند إليها في أهمية شهادة فاطمة أن موقفها عند الرسول ـ من حيث صدقها ـ لا يقل ، على أسوأ الفروض ، عن موقع خزيمة بن ثابت .

ويصدق الشيء نفسه على أم أيمن ، وابن أبي طالب الذي لم يعرف عنه قط إلا أتباع الحق وقول الصدق .

فموقف أبي بكر غريب في بابه : وأغرب منه أنه ترك سيف رسول الله ، ونعله ، وعمامته ، في يد عليٍّ على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت ولا شهادة قامت .

كما أنه لم ينتزع من علي الخاتم والسيف اللذين وهبهما له النبي أثناء مرضه .

ولم يطالب كذلك بثياب الرسول التي مات فيها فأخذتها فاطمة بعد موته . ولا بحجر رسول الله التي بقيت بيد نسائه .

ولم يطلب أبو بكر من جابر على رواية البخاري[2] البينة على دعواه حين زعم أن رسول الله وعده بإعطائه مقداراً معيناً من المال ، بل سلمه إياه عندما ورده مال من قبل العلاء بن الحضرمي .

كما أن أبا بكر أيضاً لم يطلب البينة ـ عندما قدم عليه مال من البحرين ـ من أبي بشير المازني حين ادعى أن النبي قال له إذا جاءنا شيء فائتنا ، وإنما دفع له حفنتين أو ثلاثاً من ذلك المال .

وإذا كان النبي لا يورث ، وما تركه صدقة ، فكيف يجوز أن يوارى جثمانه في الحجرة التي كانت تسكنها زوجة عائشة بنت الخليفة ؟ .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ٣ / ١٨٠ .

لأن تلك الحجرة قد أصبحت صدقة بعد وفاة الرسول مباشرة بحكم ذلك الحديث » .

تم كيف نوفق بين ذلك الحديث وبين الحديث الآخر الذي أنفرد بذكره أبو بكر القائل بأن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون ؟ أفي الحديث ناسخ ومنسوخ ؟

ثم كيف نفذ الخليفة محتويات « الحديثين » على تناقضهما ؟

وبقدر ما يتعلق الأمر بالحديث الثاني يمكننا أن نقول : إن النبي يموت في أحد موضعين : ما كان يملكه قبل وفاته ! وما كان يملكه غيره من الناس .

ولا يجوز أن يدفن جثمانه في المحل الأول لأنه أصبح صدقة على رواية أبي بكر عن النبي ، كما لا يجوز دفنه في المحل الثاني لأن ملكيته عائدة لغيره .

كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق الحرج ؟ .

ثم كيف جاز لأبي بكر نفسه أن يطلب بدفن جثمانه قرب النبي ؟ في أرض لا حق له بها من الناحية الشرعية ؟ .

وإذا كان دفن جثمان النبي على الشكل الذي ذكرناه مستنداً إلى الحديث الذي ذكره أبو بكر ، فإلى أي حديث يستند أبو بكر في طلب دفنه بجوار النبي ؟ .

هل قال النبي : يدفن الخليفة الأول قريباً مني ؟ .

كل ذلك غريب في بابه ، وأغرب منه ان كثيراً من المفسرين قد تكلفوا فيما بعد تفسير آيات الميراث ، فزعموا للرد على من طعن بصحة الحديث بأن الوراثة المذكورة في القرآن مقصورة على العلم والفضل ، دون سائر الأمور .

ولسنا نعلم كيف يورث العلم والفضل وهو امر يخالف ما الفه الناس من قديم الزمان ، ويتعارض مع أبسط مبادىءعلم النفس وعلم الإجتماع ؟

وأغرب من ذلك كله أن الخليفة يحرم السيدة فاطمة ميراث فدك ليطبق

الحديث الذي أنفرد بذكره في الوقت الذي يخالف فيه حديثاً آخر أجمع الرواة على صحته بإعتراف أبي بكر نفسه :

« فاطمة بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله »[1] .

ولا ندري ، بالإضافة إلى كل ما ذكرناه . كيف فات أبا بكر أن يتذكر موقف الرسول من أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت خديجة زوج النبي حين أسر في بد مع المشركين .

وإلى القارىء تلك القصة على ما رواها ابن الأثير[2]

« وكان في الأساري أبو العاص بن الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس زوج زينب بنت خديجة[3] .

فلما بعثت قريش في فداء الأسارى بعثة زينب بفداء أبي العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها معها ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ، وقال :

إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا عليها الذي لها فأفعلوا ، فأطلقوا لها أسيرها وردوا القلادة . . .

فلما كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأمواله وأموال رجال قريش .

فلما عاد لقيته سرية لرسول الله فأخذوا ما معه وهرب منهم ، فلما كان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه . « الناشر » .

(٢) الكامل في التاريخ ٢ / ٩٣ - ٩٥ .

(٣) وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوج رسول الله ، فسألته أن يزوجه زينب ففعل قبل أن يوحى إليه ، فلما أوحى إليه آمنت به زينب وبقي أبو العاص مشركاً ، ولم يستطع الرسول في بادىء الأمر ان يفعل شيئاً تجاه زينب المسلمة وزوجها المشرك ، فلما هاجر الى المدينة ووقعت بدر وأسر أبو العاص وأطلق سراحه كما ذكرنا أخبر النبي بأنه سوف يرسل اليه زينب الى المدينة ، فأرسل الرسول زيد بن حارثة مولاه ورجلاً آخر من الأنصار ليصحبا زينب من مكة . فلما قدم أبو العاص أمرها باللحاق بالنبي ففعلت ذلك . - المؤلف -.

الليل أتى إلى المدينة فدخل على زينب .

فلما كان الصبح خرج رسول الله الى الصلاة فنادت زينب من صفة النساء :

« أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص . . . فقال رسول الله : إن رأيتم أن تردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك ، وإذا أبيتم فهو في الله الذي أفاء عليكم وأنتم أحق به .

قالوا : يا رسول الله نرده عليه ، فردوا ماله كله حتى الشظاظ[1] » .

نقول : ألم يكن باستطاعة أبي بكر ـ في حالة التسليم معه بأن السيدة فاطمة لا ترث أبيها ، وأن النبي لم يهب فدكاً لها ـ أن يتخذ موقفاً كهذا الذي أشرنا إليه ؟ مع وجود الفارق الكبير بين الحالتين ، فقد وهب المسلمون حقهم لأبي العاص المشرك ، وكانوا ـ دون شك ـ على استعداد تام لوهب حقوقهم ـ في حالة التسليم بصحة الإجراءات التي اتخذها الخليفة ـ إلى ابنة الرسول . ألم يكن تصرف الرسول مع أبي العاص ـ في الحالتين سنة ! فهل يعتبر ترك أبي بكر لها ـ في هذه الحالة ـ منسجماً مع السنة !!

---

(١) شظاظ ، على وزن كتاب ، وهو خشبة عقفاء تجعل في عروتي الجولقين .

حـــديـــث السقيـــفة

ب ـ عمر بن الخطاب

« أما والله لقد تقمصها ابن[1] أبي قحافة ، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى . . . فسدلت دونها ثوباً . . . حتى إذا مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . . . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة . . . فواعجباً بينما هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشد ما تشطرا ضرعيها » .

وهكذا كان : انتقلت الخلافة التي تسلمها أبو بكر ، بجهود عمر كما ذكرنا في حديث السقيفة ، إلى عمر نفسه بعد وفاة صاحبه ، وقبل أن يوصي أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر ، استدعى قبل وفاته عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، لاستشارتهما في موضوع تخليفه عمر بن الخطاب ، فسألهما رأيهما في عمر ، فكان جواب الأول :

إن عمر « أفضل من رأيك فيه »[2] ـ مع العلم أن عمر كان يحتل المركز الأول عند أبي بكر ، فكيف به إذا كان أحسن من رأي أبي بكر فيه !!؟

---

(١) تقمصها ، جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها . . . فسدلت : أرخيت . . . ومضى لسبيله : مات . . . وقوله فأدلى بها من قوله تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام﴾ البقرة ١٨٨ . أي تدفعوها اليهم رشوة . وأصلها من أدليت الدلو في البئر أرسلتها . . . كان علي يرى العدول عنه الى غيره اخراج لها الى غير جهة الاستحقاق . . . من باب الاستعارة . ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ١ / ٥٠ ـ ٦٧ ، الطبعة الأولى .

(٢) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ٢٣٩ .

وكان جواب الثاني « أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله »[1] .

ولا ندري فيما إذا كان الرجلان يؤمنان حقاً بما قالاه ، أم أنهما عرفا اتجاه الخليفة فجاملاه !!؟ .

وعلى أي حال فقد أمر أبو بكر عثمان أن يكتب عهده لعمر كما هو معروف .

ويذكر المؤرخون : أن أبا بكر عندما كان يملي عهده لابن الخطاب على عثمان أغمي عليه قبل ان يذكر اسم ابن الخطاب.

وأن عثمان وضعه من نفسه مستدلاً على ذلك من الإتجاه العام لمجرى الأمور .

فلما أفاق أبو بكر : قرأ العهد عثمان عليه ، فأقره واستحسنه ـ ولسنا نعلم كيف أجاز عثمان لنفسه ذلك ؟ أينسجم ذلك العمل مع أوليات مبدأ الأمانة ؟ .

ولو فرضنا أن أبا بكر قد توفي أثناء تلك الإغماءة ، فهل يجوز اعتبار العهد سليماً من الناحية الشرعية ؟ .

ولا ندري لماذا استشار أبو بكر عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان دون سائر الصحابة ، ولماذا فكر أبو بكر في أمر الخلافة بعده ، من الناحية المبدئية العامة ـ بغض النظر عن تولية عمر بالذات ـ في حين أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من وجهة نظر أبي بكر ، لم يفكر في هذا الأمر ؟ .

واذا كانت مصلحة المسلمين تستلزم ذلك ، فهل يكون أبو بكر أحرص من النبي صلّى عليه وسلم عليها ، وإذا كان ترك الرسول أمر الخلافة من بعده للمسلمين أنفسهم ـ حسب وجهة نظر بعض المسلمين ـ سنة ، فهل إيصاء أبي بكر لعمر يتفق مع السنة ؟ .

ثم لماذا سأل أبو بكر : عبد الرحمن وعثمان عن رأيهما في عمر بالذات ، دون سواه من المسلمين ! والشيء الذي لا يرقى إليه الشك هو :

« أن أبا بكر رأى لعمر عليه حقاً حين استخلفه . . . ولكن الأسلوب الذي

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود : الإمام علي بن أبي طالب ١ / ٢٤٠ .

انتهجه عند الاختيار كان أسلوباً يستطاع وسمه بالهنات والأخطاء !

فإن الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدأ كأنه أضمر التثبيت ، وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ، ووقع بهذا في الخطأ الذي وقع فيه عمر من قبل عند وفاة الرسول .

أسقط أبو بكر من حسابه : علياً ، الذي كان أولى بالرعاية وبالحساب من سواه »[1] .

ومما يلفت النظر في الأمر حقاً ، كما سلف أن ذكرنا ، أن أبا بكر الذي كان يذهب مذهب القائلين بأن النبي ترك أمر الخلافة من بعده للمسلمين قد أوصى بالخلافة من بعده لعمر !؟ .

* * *

« حتى إذا مضى الثاني لسبيله جعلها في جماعة زعم إني أحدهم . . . فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر !! »[2] .

قال عمر بن ميمون الأسدي ، على ما يذكر ابن الأثير[3] :

« لما طعن عمر بن الخطاب[4] قيل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال : من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي - إن سألني -

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود ١ / ٢٣٨ .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ١ / ٥٠ - ٦٨ الطبعة الأولى .

(٣) الكامل في التاريخ ٣ / ٣٤ .

(٤) وإلى القارىء ما ذكره ابن خلدون في مسألة مصرع الخليفة الثاني « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ٢ / ٣٦٢ » « كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة ، وكان يشدد عليه في الخراج ، فلقي يوماً عمر في السوق فشكا اليه وقال : اعدني على المغيرة ، فإنه يثقل عليّ في الخراج درهمين في كل يوم ، قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، حداد ، نقاش ، فقال : ليس ذلك بالكثير على هذه الصنائع . . وقد بلغني أنك تقول : أصنع رحى تطحن بالريح ، فاصنع لي رحى ، قال : أصنع لك رحى يتحدث الناس بها !؟ وانصرف . فقال عمر : توعدني العلج !! فلما أصبح الصباح خرج عمر الى الصلاة . . . ودخل ابو لؤلؤة وبيده الخنجر ، فضرب عمر » .

سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة .

ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي ـ إن سألني ـ سمعت نبيك يقول : « إن سالماً شديد الحب لله » .

وعندي لو أن أبا عبيدة كان حياً لاستخلفه عمر ، لا لكونه أمين هذه الأمة ـ على حد تعبير ابن الخطاب ـ ولكن لأنه كان ثالث : أصحاب السقيفة ، ولتأخر بذلك استخلاف عثمان بن عفان ، ولأصبح الخلفاء الراشدون خمسة في حالة وصول الخلافة لعلي ، وجريان الأحداث في عهد عثمان ـ الخليفة الرابع ـ على الشكل الذي جرت عليه في عهده ـ وهو : الخليفة الثالث .

ولا ندري ما الذي حال بين عمر وبين دفع الخلافة إلى أبي عبيدة بعد وفاة الرسول ما دام قد سمع قول النبي الآنف الذكر !! وأن يقترح على الأنصار في السقيفة أن يحولوا الخلافة إلى أبن الجراح ، أو إلى سالم !! أو أن يقول لأبي بكر آنذاك حين طلب من الانصار أن يبايعوا عمر أو أبا عبيدة ـ إننا نبايع أبا عبيدة أو سالماً ، لأن الرسول قال فيهما : كذا وكذا !!

ولماذا بايع ابن الخطاب أبا بكر بالخلافة دون أن يقول فيه الرسول ما قاله في أبي عبيدة أو في سالم ؟؟ . ولماذا لم يقترح عمر على أبي بكر أن يسلم الخلافة من بعده إلى أبي عبيدة بدلاً من عمر نفسه ؟[1] .

وإذا كانت شروط الخلافة لا تخرج عن توافر حب الشخص لله أو كونه أمين هذه الأمة بشهادة الرسول فعلي بن أبي طالب أولى من غيره ، ؛ فكيف غاب عن ذهن عمر قول رسول الله يوم خيبر على ما ذكر الإمام مسلم في صحيحه[2] :

« لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله » إلى آخر الحديث وتسليمه الراية لعلي ؟ .

ومهما يكن من شيء فقد استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن

---

(١) لأن سالماً قتل في أوائل خلافة أبي بكر أثناء حرب الذين اتهموا بالامتناع عن أداء الزكاة .
(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢٢٤ .

العوام وقال لهم : « اذا متُّ تشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلِّ بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، وليحضر عبد الله بن عمر مشيراً . . . وطلحة بن عبيد الله[1] شريككم في الأمر . فإن قدم الثلاثة فأحضروه أمركم .

وقال لأبي طلحة الأنصاري : إختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم .

وقال للمقداد بن الاسود : إذا وضعتموني في حفرتي[2] فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم . . فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فأشرخ رأسه بالسيف .

وإن اتفق اربعة وأبى اثنان فأضرب رؤوسهما .

وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف[3] .

وأقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فلما مات عمر واخرجت جنازته صلى عليه صهيب ، فلما دفن جمع المقداد أصحاب الشورى . . . وطلحة غائب . . . فقال عبد الرحمن :

أيكم يخرج منها نفسه . . على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد ، فقال :

فأنا أنخلع منها ، فقال عثمان : أنا أول من رضي ، وقال القوم : قد رضينا ، وعلي ساكت ، فقال :

ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال :

أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة نصحاً »[4] . فأعطاه الموثق المطلوب[5] .

---

(١) وكان غائباً عن المدينة آنذاك .

(٢) تذكر أن جثمان الرسول لم يوضع في حفرته وعقد اجتماع السقيفة المشهور .

(٣) تذكر شهادة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عند أبي بكر بشأن استخلافه عمر ، وما صنعه عثمان عند كتابته عهد أبي بكر لعمر .

(٤) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ٣ / ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) وما أكثر إعطاء المواثيق في أمثال هذه الأمور الخطيرة لغرض الحصول على الغاية المرجوة . ومن ثم يبدأ =

وبعد نقاش طويل بين الحاضرين نظر ابن عوف إلى علي بن أبي طالب وقال :

« أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ، فقال علي : بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي :

فعدل عنه إلى عثمان ، فعرض عليه ذلك ، فقال : نعم ، فعاد على عليٍّ . ، فأعاد قوله . . . فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً .

فلما رأى علياً غير راجع عما قاله ، وأن عثمان ينعم بالإجابة صفق على يد عثمان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . ويقال :

إن علياً قال : والله ما فعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه »[1] .

فهل فعل ذلك عبد الرحمن عفواً أم أنه أمر مبيت قبل الاجتماع ؟!

أليس القصد من وضعه شرط اتباع سيرة الشيخين يتضمن سلماً إخراج عليٍّ من الموضوع . على أن موضوع الشورى مع هذا يحتاج إلى مناقشة وتدقيق .

وقبل أن نتصدى لمناقشته يجمل بنا أن نشير إلى الأمرين التاليين :

١ ـ ذكر الطبري[2] رواية تتعلق بتصريح لعمر بن الخطاب أثناء انشغاله في قضية الشورى فحواه : أن عمر لما طعن ورفض أمر الاستخلاف ، وندم على وفاة أبي عبيدة وسالم ، كما ذكرنا .

قال لبعض عائديه من الصحابة وفيهم عليّ ـ قبل تعيين رهط الشورى ـ « إني كنت قد اجمعت قبل مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق ـ وأشار إلى علي .

ورهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة ثم غرسها . فجعل يقطف كل غضة

= التسويف والمماطلة والانحراف ، وما أكثر الذين يدفعهم إيمانهم الخالص الى وضع تلك المواثيق ظناً منهم أنهم ما داموا لا يستطيعون أن يخرجوا عليها فإن غيرهم لا يستطيع أيضاً أن يخرج عليها .

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ١ / ٥٠ ـ ٦٧ الطبعة الأولى . ويظهر من كلام الإمام عليه السلام أن اتفاقاً سابقاً كان بين أبي بكر وعمر حول تولي الخلافة « الناشر » .

(٢) « تاريخ الامم والملوك » ٥ / ٣٤ ، ٣٥ .

ويانعة فيضمه إليه ، ويصيره تحته . فعلمت أن الله غالب على أمره ، ومتوف عمر ، فما أريد أن أتحملها حياً وميتاً .

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله : أنهم من أهل الجنة :

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله . . . وما اظن أن يلي الأمر إلا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان ، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين .

وإن ولي عليّ ففيه دعابة وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق » .

٢ ـ وكتب مؤرخ آخر[١] أن عمر كان قد استدعي قبل أن يبت في أمر الشورى كلا من الزبير وطلحة ـ قبل سفره من المدينة ـ وسعد وعبد الرحمن وعلي وعثمان ، وقال :

« ما أنت يا زبير ! . . . يوماً إنسان ويوماً شيطان .

وما أنت يا طلحة ! فقد مات رسول الله ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب ـ وفي رواية أخرى :

« ألست القائل : إن قبض محمد أنكح أزواجه من بعده ، فما جعل الله محمداً أحق ببنات أعمامنا منا ! فأنزل الله فيك قوله :

﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً** ﴾[٢] .

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : لو قال لعمر قائل : أنت قلت : إن رسول الله مات وهو راضٍ عن الستة فكيف تقول لطلحة إنه مات ساخط عليك للكلمة التي قلتها ، لكان قد رماه بمشاقصة .

ثم أقبل عمر على سعد فقال : أما أنت فصاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس ، وما زهرة والخلافة ، وأمور الناس !

ثم أقبل على عبد الرحمن فقال ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف

---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٣ / ١٧٠ طبعة مصر الأولى .
(٢) الأحزاب : ٥٣ .

كضعفك وما « زهرة » وهذه الإمرة !

ثم أقبل على عليٍّ فقال : لله أنت لولا دعابة فيك !

أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح .

ثم أقبل على عثمان فقال : هيا إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر . فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء » .

وإذا أمعنا النظر في قضية الشورى ، على الشكل الذي ذكرناه ، إتضح لنا أن عمر قد حددها تحديداً دقيقاً وبين رأيه فيها فجعلها شورى مشروطة لا مطلقة .

وأول ما يتبادر إلى ذهن المرء في هذا الاشتراط هو رغبة عمر في حصول الإجماع بين رجال الشورى . وهو أمر ـ دون شك ـ على جانب كبير من الوجاهة من الناحية المبدئية ، غير أن عمر قد قيد الشرط أيضاً ـ أي أنه جعل الشرط نفسه مشروطاً ، إن جاز هذا التعبير ـ فأمر المشرف على شؤون الشورى أن يشرخ رأس من يخالف الأكثرية ، ورؤوس المخالفين ـ في حالة انقسام المؤتمرين فيما بينهم إلى نصفين ـ للرأي المخالف للنصف الذي فيه عبد الرحمن أبو عوف .

ولسنا نعرف السر الذي دفع عمر إلى إيثار ابن عوف بذلك سوى علاقات شخصية بين الرجلين ذكر الطبري[1] طرفاً منها !!

ولم يعر ابن الخطاب على ما يبدو أية أهمية للأسس التي يستند إليها من يخالف رأي أكثرية المجتمعين ، أو رأي النصف الذي ينحاز إليه ابن عوف .

فكيف وهؤلاء المسلمين من خيرة اصحاب النبي بشهادة عمر نفسه ؟ فقد استباح ابن الخطاب دماءهم بعد ثلاثة أيام فقط من بدء التداول في أمر الشورى الذي يتوقف عليه مصير المسلمين .

ثم ألم يكن تفكير عمر في أمر خلافة المسلمين من بعده ، كما فعل أبو بكر ، يخالف سنة الرسول الذي مات ـ من وجهة نظر عمر ـ ولم يوص بالخلافة لأحد من

---

(١) « تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٢٠ ، ٥١ و ٤ / ١٦٢ ـ وكان ابن عوف من أكابر المثرين في الجاهلية والإسلام . وكان مترفاً في طعامه ولباسه وسكنه ، وقد سمح له الرسول ، على ما يذكر الرواة : أن يلبس الحرير لحكة كانت في جلده .

بعده ؟ .

ثم ألا يجوز لنا أن نسأل عن حق هؤلاء الرهط في تقرير مصير الخلافة دون سائر المسلمين ؟ وإذا كان مجرد رضا النبي عنهم ، إذا فرضنا صحة ذلك ، مع العلم أن بعض المؤرخين ـ كما سلف أن ذكرنا ـ قد أشار إلى غضب الرسول على طلحة كافياً لترشيحهم للشورى ، فلماذا لم يدخل عمر آخرين ممن كان الرسول راضياً عنهم من المهاجرين والأنصار ؟ .

وإذا كان سعيد بن عمرو بن نفيل حائزاً على شروط الشورى ، بأعتراف عمر نفسه ـ كما ذكرنا ـ فلماذا استثناء عمر وحرمه من المساهمة في هذا الأمر العظيم ؟ وحرم رجال الشورى من رأيه ؟ .

ومن الغريب أن يصف عمر علياً بالدعابة ، ولم نسمع أحداً غير عمر وصفه بذلك فقد كان علي معروفاً بالزكانة والبعد عن المزاح والدعابة .

هذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره . . . وقد روى عن أبن عباس أنه قال :

كان أمير المؤمنين إذا أتى هبنا أن نبدأه بالكلام .

وهذا لا يكون إلا من شدة التزمت والتوقر ، وما يخالف الدعابة والفكاهة[1] .

ثم ألا يوجد تفاوت كبير بين رجال الشورى من حيث موقعهم من الرسول وأثرهم في الإسلام . فلماذا اعتبرهم عمر على درجة واحدة من الأثر في هذا الباب .

ثم أليست هناك روابط عائلية ومصلحية بين رجال الشورى .

ألا تؤثر تلك الروابط على سلامة الاختيار .

ألم يقل عمر للزبير : إنك يوماً شيطان ويوماً إنسان . ولطلحة :

ما أنزله الله فيه من قرآن . ولسعد . . . « فمن ذا يستطيع أن يقول : إن عمر لم يحدد موقفه من الشورى غاية التحديد .

---

(١) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٣ / ١٧٠ طبعة مصر الأولى

ولم يقطع على علي ـ بالتلميح أو التصريح ـ الطرق إلى ولاية الناس . . .

لقد ألب عمر على عليّ أحقاد قريش . فمن لعلي برضى تيم وقد نافس شيخها أبا بكر

وهذا طلحة التيمي ! ، ومن له بمحو الاحقاد الأموية من بني هاشم .

وهذا عثمان ! وقد ضمت الشورى أيضاً سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ولكليهما نسب موصول ببني أمية .

أتى الأول من ناحية أمه حمنة بنت سفيان .

وأتى الثاني من ناحية زوجه أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان[1] .

ولنعد ثانية إلى نص عبارة ابن الخطاب لرجل الشورى :

أليست صيغتها توحي بترشيح عمر عثمان لولاية المسلمين .

وهل الدعابة المزعومة في عليّ ـ على فرض وجودها جدلاً ـ عامل حاسم في إبعاد علي عن الخلافة على الرغم من أنه يحملهم بشهادة عمر نفسه ، على الحق الواضح .

ثم إذا كان عمر ـ على ما يروي الطبري ـ قد أرتأى أن يولي أمور المسلمين رجلاً هو أحراهم أن يحملهم على الحق ـ وأشار إلى عليّ ـ فلماذا أقلع عن ذلك لا لشيء وجيه سوى طيف ألم به على ما ذكر هو حسب رواية الطبري .

والخلاصة : « أن قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها ـ برهة ـ ذهن المتدبر ، لأن فيها . . . خروجاً على مبدأ الشورى . . . وتحكم الفرد في الجماعة . . . وفي نفر اختاره وفق تقديره إن لم يكن وفق هواه . . .

وفيها تعسف لتسوية بين سنة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا سواءِ . وفيها تكتل القوى العصبية »[2] .

ذلك ما يتصل بأمر الشورى بشكل عام .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٢٣ ، ١٢٤

أما ما يتصل بتفاصيل اجتماع رجالها بعد وفاة الخليفة ، فإن أول شيء « مكر به عبد الرحمن أنه ابتدأ فأخرج نفسه من الأمر ليتمكن من صرفه إلى من يريد ليقال : إنه لولا إيثاره للحق ، وزهده في الولاية ، لما أخرج نفسه منها »[1] .

ولا ندري فيما اذا كان تصرف ابن عوف قد حصل عفواً ، ومن وحي الساعة أم أنه أمر متفق عليه قبل وفاة الخليفة !

ثم أن عبد الرحمن بإخراجه نفسه من الموضوع قد حصل على امتياز خاص جعل أمر الخلافة منوطاً به ، وقد حصل على ذلك الامتياز دون أن يخسر شيئاً في الواقع ، ذلك لأنه أخرج نفسه من أمر ـ الخلافة ـ ما زال إلى وقت خروجه منه غير مبتوت فيه .

فلماذا إذن وقف ابن عوف موقفه المعروف فخلع نفسه من الخلافة ـ وهو أمر لا يملكه قبل عملية الشورى وفي حالة انتخابه للخلافة .

ثم ألم تؤثر صلة نسبه بعثمان في موقفه من عليّ .

ولماذا اشترط عبد الرحمن أن يسير على عليّ ما سماه « سيرة الشيخين » بالإضافة إلى القرآن وسنة الرسول .

هل سار الشيخان على القرآن وسنة النبي وسيرة الشيخين . أم على القرآن والسنة حسب اجتهاد كل منهما ـ كما أراد عليّ أن يسير ؟ .

ثم هل هناك شيء محدد اسمه « سيرة الشيخين » .

ألم يختلف الشيخان اختلافات كثيرة فيما بينهما . وبقدر ما يتعلق الأمر باختلاف سيرة أبي بكر في الخلافة عن سيرة عمر ـ في كثير من القضايا ـ يمكننا أن نذكر بعض الأمثلة على سبيل التمثيل لا الحصر .

ويجمل بنا قبل ذلك أن نشير الى أن عمر نفسه كثيراً ما تختلف سيرته عن سيرة النبي في بعض التصرفات العامة ـ من ذلك مثلاً طريقته في تقسيم العطاء بين المسلمين : إذ لا بد أن حضرته آنذاك عوامل رجحت لديه رأيه .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ١٧٢ طبعة مصر الأولى .

ولكن مما لا ريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه ، وكان أجدى به . . . أن يعدل عما حزم عليه أمره . . . ولكنه رأى رأياً فالتزمه . . . وأن رسول الله صاحب خير الآراء كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينما نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم . . . إذ بإبن الخطاب من بعده يخالفه »[1] .

« ولعل آفة عمر كانت دفعته ـ تلك التي أوقفته دائماً مواقف أنكرها من نفسه كلما فاتت آونتها واتسع أمامه مجال التفكير . . .

وقد طالما أفتى بالحكم ، ثم عاد فنقضه إذ يتروى .

وقد طالما دفعته الرغبة في الإصلاح إلى سن الشرعة . . فإذا بها لا تلبث أن تتقوض أمام شرعة أعلى جرت على لسان غيره »[2] .

وطالما عمل عملاً بالاستناد إلى قناعته الشخصية ثم عاد فأقلع عنه إذا تغيرت قناعته من ذلك ، مثلاً : ـ

أ ـ أتاه رجل فقال : « يا أمير المؤمنين إن فلاناً ظلمني فأعدني عليه ، فرفع في السماء درته وضرب رأسه ، وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، وحتى إذا شغل بأمر المسلمين أتيتموه : أعدني !! فأنصرف الرجل يتذمر .

فقال عمر : عليّ بالرجل ، فجيء به ، فألقي إليه المخفقة فقال : اقتص ، قال :

بل أدعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدعه إما لله وإرادة ما عنده ، وإما تدعه لي ، قال : أدعه لله ، قال : أنصرف . .

ثم جاء حتى دخل منزله . . . فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال :

يا ابن الخطاب ، كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك . . . ثم

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود : « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٩ ، ١٠ .
(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٥٠ ، ٢٥١ .

حملك على رقاب الناس ، فجاء رجل ليستعديك على من ظلمه فضربته ، ماذا تقول لربك غداً »[1] .

ب ـ « استعمل عمر : النعمان بن عدي بن نفيلة على ميسان . فبلغه عنه الشعر الذي قال فيه :

ومن مبلغ الحسناء ان خيلها ... بميسان يسقى من زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... وصناجة تحدُ على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فكتب إليه :

« أما بعد . . . فقد بلغني قولك . . . وأيم الله إنه يسوؤ ني ، فأقدم فقد عزلتك .

فلما قدم عليه قال : يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وإنما هو شعر طفح على لساني ، وإني لشاعر !

فقال عمر : اظن ذاك ، ولكن لا تعمل لي غملاً أبداً »[2] .

ج ـ استعمل عمر رجلاً من قريش على عمل ، فبلغه عنه أنه قال :

أسقني شربة تروي عظامي ... وأسق بالله مثلها ابن هشام

فأشخصه إليه ، وفطن القرشي فضم إليه بيتاً آخر ، فلما مثل بين يديه قال :

أنت القائل : أسقني . . .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فهلا أبلغك الواشي ما بعده .

قال : ما الذي بعده ؟ قال :

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٩٧ طبعة مصر الأولى .
(٢) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٩٨ .

عسلاً بارداً بماء غمام إنني لا أحب شرب المدام

فقال : أرجع إلى عملك »[1] .

د ـ سأل عمر أحد أمراء الشام عن سيرته وما يصنعه بالقرآن والأحكام ؟ . فأجابه بما يرضيه ، فأستحسن ذلك منه وأقره على عمله ، وأمره بالإلتحاق به ، « فلما ولى رجع فقال : يا أمير المؤمنين إني رأيت البارحة رؤ يا أقصها عليك .

رأيت الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب ؟ .

فقال : فمع أيهما كنت ؟ قال : مع القمر .

فقال عزلتك ، لأن الله قال : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعنا آية النهار مبصرة**﴾[2] .

هـ ـ لما كتب النبي كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو كان في الكتاب : إن من خرج من المسلمين إلى قريش لا يرد .

ومن يخرج من المشركين إلى النبي يرد إليهم ، غضب عمر وقال لأبي بكر :

ما هذا ؟ . . . ثم جاء إلى النبي فجلس بين يديه . . . وقال :

علامَ نعطي الدنية في ديننا ! فقال رسول الله : أفعل ما يأمرني به ربي . . . .

فقام عمر مغضباً ، « وقال : والله لو أجد أعواناً لما أعطيت الدنية أبداً »[3] .

و ـ « خرج عمر بن الخطاب . . . وعبد الرحمن بن عوف ليلاً يطوفان في المدينة ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أنه عن المصابيح بعد النوم ؟ فأنطلقا فإذا قوم على شراب لهم ، قال : انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه . . قال :

يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب ؟ قال : وما أعلمك يا أمَير المؤمنين ؟ قال .

---

(١) المصدر نفسه ٣ / ٩٨ .

(٢) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٩٨ الآية : ١٢ : الإسراء .

(٣) المصدر نفسه ٣ / ١٩ .

شيء شهدته ، قال : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟ فتجاوز عنه »[1] .

ذلك ما يتعلق باختلاف سيرة عمر نفسه حسب اختلاف وضعه النفسي .

أما ما يتعلق باختلاف سيرته عن الرسول فيمكننا أن نذكر الأمثلة التالية ، بالإضافة إلى طريقته في تقسيم الغنائم التي مر بنا ذكرها :

١ ـ « غزا رسول الله خيبر في سنة سبع ، فطاوله أهلها وماكثوه وقتلوا : المسلمين . فحاصرهم رسول الله قريباً من شهر ، ثم إنهم صالحوه على حقن دمائهم . . . ثم قالوا لرسول الله : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا ، فأقرهم رسول الله وعاملهم على الشطر من الثمر . . . فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب . . . أجلاهم وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين »[2] .

٢ ـ « حدثنا عمر الناقد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا يحيى بن سعيد عن بشير ابن يسار : أن النبي . . . دفع خيبر إلى اليهود يعملونها على نصف [ما] خرج منها ، فلم يزل على ذلك حياة رسول الله ، وأبي بكر .

فلما كان عمر وكثر المال في أيدي المسلمين وقووا على عمارة الأرض أجلى اليهود إلى الشام وقسم الأموال بين المسلمين »[3] .

٣ ـ « أتى رسول الله وادي القرى ، فدعى أهلها إلى الإسلام ، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا ، ففتحها رسول الله عنوة . . . وترك النخيل والأرض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، فقيل :

إن عمر أجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها »[4] .

وأما ما يتعلق باختلاف سيرة عمر عن سيرة أبي بكر فنذكر منها ، بالإضافة إلى ما ذكرناه ، الحوادث التالية :

أ ـ « جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقال :

---

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ٣ / ٣٠ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان » ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .

يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها ، ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ .

فقال أبو بكر لمن حوله من المسلمين : ما ترون ؟ قالوا :

لا بأس ، فكتب لهما كتاباً ، وأشهد فيه شهوداً ، ولم يكن عمر حاضراً . . .

فلما سمع عمر ما في الكتاب أخذه منهما . . فمحاه ، فتذمرا . . . فقال :

إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذٍ ذليل . . . وإن الله قد أعز الإسلام فأذهبا . . فذهبا إلى أبي بكر يتذمران .

وجاء عمر وهو مغضب ، حتى وقف على أبي بكر فقال :

أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين ، أهي لك خالصة ، أم بين المسلمين عامة ؟ قال : بين المسلمين عامة ، قال : من حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولي ، فأشاروا بذلك ؟ .

فقال : أفكل المسلمين أوسعهم مشورة ورضاً ؟ »[1] .

ب ـ ذكر بعض الرواة في حديث فدك :

أن أبا بكر حينما قابلته السيدة فاطمة وذكرت له أن فدك لها نحلة من الرسول ، اقتنع بذلك بعد تردد ، فكتب لها كتاباً بذلك ، غير أن عمر ـ على ما يذكر أولئك الرواة ـ قد صادفها في الطريق عائدة إلى دارها من عند أبي بكر ، فذكرت له الكتاب ، فطلبه منها ومزقه ، ولام أبا بكر على ذلك ؟ .

ج ـ ويبدو اختلاف السيرتين واضحاً في قضية خالد بن الوليد مع مالك ابن نويرة ، وهي قضية مهمة ؛ ونرى وجوب ذكريها بشيء من التفصيل . فقد ارتكب خالد ـ على ما نرى ـ سلسلة من الاخطاء الاجتماعية والدينية في هذه القضية :

فقد سار إلى مالك وصحبه دون أمر من الخليفة ، وقاتلهم دون أن يكون هناك مبرر للقتال من الناحية الدينية ، أمر بقتل مالك بشكل من الغدر لا يجيزه الإسلام .

---

(١) ابن ابي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٣ / ١٠٨ الطبعة الأولى .

ونكح زوج مالك بشكل يتنافى هو والعفة والشرف وكبر النفس . . . فأستحق بذلك أكثر من عقوبة ، غير أن أبا بكر عفا عنه فأمتعض عمر من ذلك وعزله أثناء خلافته ـ وإلى القارىء ملخص القصة المذكورة :

ذكر ابن الأثير[1] : « سار خالد بعد أن فرغ من فزارة ، وأسد ، وطيء ، يريد البطاح [2] وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه أمره . وتخلفت الأنصار عن خالد ، وقالوا :

ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إن الخليفة عهد إلينا أن نحن فرغنا من بزاخة[3] وأسبرنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا ، فقال خالد :

أنا الأمير . . . هذا مالك بن نويرة بحيالنا ، فأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين . . .

وكان قد أوصاهم أبو بكر[4] أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلاً .

فإذا أذن القوم ، فكفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فقاتلوهم .

وإن أجابوا إلى داعية الإسلام فسألوهم عن الزكاة ، فإن أقروا فأقبلوا منهم .

وإن أبوا فقاتلوهم ، فجاءت خالداً الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة ابن يربوع ، فاختلفت السرية فيهم .

وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وصلوا .

فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالد

---

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) البطاح ـ كغراب ـ وهو منزل لبني يربوع ـ وفي « مراصد الاطلاع » طبع عيسى الحلبي بالقاهرة ١ / ٢٠٣ « بطاح ـ بالضم ـ ماء في ديار بني أسد بن خزيمة » ا هـ ، مصححه . « الناشر » .

(٣) بزاخة ـ بالضم ، والخاء معجمة ـ : قال الأصمعي : ماء لطيء بأرض نجد . وقال أبو عمرو : لبني أسد ، فيه كانت وقعة المسلمين مع طليحة في الردة ـ قال القعقاع يذكر يوم بزاخة .

ويوماً على ماء البزاخة خالد أثار بها في هبوة الموت عثيراً

ا هـ من « مراصد الاطلاع » ١ / ١٩٢ طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « الناشر » .

(٤) فيما يتصل بموقفهم من الذين امتنعوا عن أداء الزكاة بالسير اليهم إلا في قضية مالك ابن نويرة التي لم يثبت للخليفة آنذاك امتناعه .

منادياً فنادى ادفئوا أسراكم ـ وهي في لغة كنانة القتل ـ . . . فقتلوهم . . . فتزوج خالد أم تميم ، أمرأة مالك .

فقال عمر لأبي بكر : إن سيف خالد فيه رهق ، وأكثر عليه في ذلك ، فقال :

هيه يا عمر !! تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد .

فدخل خالد على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه ، فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه في التزويج .

وقدم متمم بن نويرة على أبي بكر يطلب بدم أخيه ويسأله أن يرد عليهم سبيهم ؟ فأمر أبو بكر برد السبي ، وودى مالكاً من بيت المال » .

وقد روي على ما يقول البلاذري[1] : « أن متمم بن نويرة دخل على عمر ابن الخطاب[2] فقال له عمر : ما بلغ وجدك على أخيك مالك .

قال : بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة[3] عيني الصحيحة ، وما رأيت ناراً إلا كدت أنقطع لها أسفاً عليه ، لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح ، مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه » .

لا بد أن القارىء قد لاحظ معنا ، في رواية ابن الأثير ، جملة مخالفات قام بها خالد بن الوليد :

١ ـ فقد سار ، كما ذكرنا ، إلى قتال مالك دون أن يتلقى بذلك أمراً من الخليفة .

٢ ـ أهمل المبدأ العام الذي وضعه أبو بكر لمعالجة مشكلة المسلمين الذين أتهموا بالامتناع عن دفع الزكاة ـ ذلك المبدأ الذي يتلخص ، كما ذكرنا ، بأن يؤذن

---

(١) فتوح البلدان ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) أثناء خلافته حيث أنشده مرثيته المشهورة التي يقول فيها :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(٣) أسعدت عيني الذاهبة : الإسعاد لا يكون الا في البكاء ـ قاله في المقاييس ، مادة « سعد » ٣ / ٧٥ طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة . « مصححة » .

في وقت الصلاة مؤذن من جيش المسلمين ، فإن أذن المتهمون بالامتناع عن دفع الزكاة فلا يجوز قتالهم ابتداء . ثم يسألون عن أمر الزكاة . فإن أقروا ـ أي أعترفوا بوجوبها ـ حرمت على خالد وصحبه دماؤهم وأموالهم .

أي أن الخليفة لم يشترط أخذ الزكاة من القوم وإنما اشترط إقرارهم بها . فإذا أقروا بذلك ، صانوا أرواحهم وأموالهم من عبث العابثين ،

وقد شهد أبو قتادة كما ذكرنا بأن أصحاب مالك بن نويرة قد أذنوا وأقاموا وصلوا ـ أي أنهم ذهبوا إلى أبعد من مجرد الأذان الذي جعله الخليفة كافياً لتحريم قتالهم .

٣ ـ إن خالداً أمر بقتلهم غدراً بذلك الشكل الشنيع فأدفأهم ـ على لغة كنانة ـ[1] وكان باستطاعته وقد أصبحوا في أسره ، وتحت رحمته أن يرسلهم الخليفة بعد أن يتأكد من خروجهم على مبادىء الإسلام ، وإصرارهم على ذلك الخروج ليفعل الخليفة بهم ما يشاء .

٤ ـ وتزوج خالد أم تميم أمرأة مالك في الوقت الذي قتل فيها زوجها ـ وفي هذا ما فيه من خروج على مبادىء الدين الحنيف وتدنٍ عن المستويات الخلقية الرفيعة .

على أننا إذا نظرنا إلى مأساة مالك ـ من زاوية أخرى ـ أمكننا أن نلاحظ فيها الأمور التالية :

(أ) لقد تردد أمر الزكاة على مالك كما يقول ابن الأثير .

والتردد غير الامتناع ، لأنه يتضمن التريث والإحجام وهي فترة وسطى بين الامتناع والانصياع . فإذا حصل الامتناع ، فإنه ـ مع ذلك ـ لا يجوز قتاله برأينا ، إلا إذا كان الامتناع مشروطاً لا مطلقاً ـ أي أن يكون حصوله نتيجة للانتقاض على العقيدة الإسلامية .

ومما يؤيد وجاهة ما ذهب إليه ابن الأثير : أن مالكاً الذي كان والياً على

---

(١) مما لا شك فيه أن خالداً قصد بعبارة « أدفئوا أسراكم » قتلهم ، لأنه حبسهم « عند ضرار بن الأزور . . . وكان كنانياً » . ابن خلدون في « كتاب العبر » ٢ / ٢٧٨ .

صدقات قومه بني يربوع من قبل النبي ، لما بلغته وفاة الرسول أمسك عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم : تربصوا بها حتى يقوم قائم بعد النبي وننظر ما يكون من أمره ، وقد صرح بذلك في شعر :

وقال رجال : سدد اليوم مالك وقال رجال : مالك لم يسدد
فإن قام بالأمر المجدد قائم أطعنا وقلنا : الدين دين محمد

فصرح مالك إذن أنه أستبقى الصدقة في أيدي قومه رفقاً بهم ، وتقرباً إليهم ، إلى أن يقوم بالأمر من يدفع له ذلك »[1] .

(ب) لقد تجاوز أبو بكر عن خالد ـ رغم إصرار عمر على ضرورة معاقبته ـ بدافع الرأفة به والشفقة عليه ، ولكن ذلك التجاوز قد حصل على حساب إقامة الحدود الدينية على ابن الوليد .

فقد أخطأ خالد بأعتراف أبي بكر ، وأخطأ خالد وأقر بخطئه واعتذر عنه .

ولا ندري أيجوز الصفح عن المجرم إذا ندم وأعتذر ؟ .

وهل يجوز الاجتهاد في معرض النص ؟ .

ولعل هذه الحادثة وأمثالها هي التي جعلت علياً يمتنع عن إلزام نفسه بالسير وفق سيرة الشيخين حين عرض عليه ذلك عبد الرحمن بن عوف أثناء الشورى .

(ج) ومما يؤيد عدم قناعة أبي بكر ببراءة خالد أنه أمر برد السبي وودى مالكاً من بيت المال عندما قدم عليه متمم بن نويرة يطالبه بدم أخيه ويسأله أن يرد عليهم سبيهم . على أننا لا نعلم فيما إذا جاز لأبي بكر من الناحية الدينية أن يدفع من بيت مال المسلمين تعويضاً عن جريمة شخصية ارتكبها ابن الوليد !!

أما كيفية وقوع مالك وبعض صحبه أسرى بيد خالد بن الوليد ، وما جرى لهم بعد الأسر ، وموقف عمر من ذلك ، فقد لخصه أحد الرواة [2] بقوله :

---

(١) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٨٤ .
(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٨٤ الطبعة الأولى .

« إن السرية التي بعث بها خالد لما غشيت القوم تحت الليل راعوهم ، فأخذ القوم السلاح .

فقال أصحاب خالد : نحن المسلمون .

فقال أصحاب مالك : ونحن المسلمون . فقال أصحاب خالد : ما بال السلاح معكم !! فلما وضعوا السلاح رُبِّطوا أسارى ، فأتوا بهم خالداً ، فحدث أبو قتادة خالد بن الوليد : أن القوم نادوا بالإسلام ، وأن لهم أماناً .

فلم يلتفت خالد إلى قوله ، وأمر بقتلهم وتقسيم سبيهم .

وحلف أبو قتادة أن لا يسير تحت لواء خالد في جيش أبداً . وركب فرسه شاذاً إلى أبي بكر ، فأخبره الخبر ، وقال :

إني نهيت خالداً عن قتل مالك فلم يقبل قولي ، وأخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم ، وأن عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر ، وقال :

إن القصاص وجب عليه .

فلما دخل خالد المسجد قام إليه عمر . . . وقال : يا عدو نفسه عدوت على امرىء مسلم فقتلته ، ونزوت على أمرأته . . . والله لنرجمنك بأحجارك .

وقد روي ايضاً أن عمر لما ولي جمع من عشيرة مالك بن نويرة من وجد منهم واسترجع ما وجد عند المسلمين من أموالهم وأولادهم ونسائهم ، فرد ذلك عليهم جميعاً .

وقيل : إنه ارتجع بعض نسائهم من نواحي دمشق وبعضهن حوامل فردهن على أزواجهن ، فالأمر ظاهر في خطأ خالد ، وخطأ من تجاوز عنه » .

وكانت حجة مالك وأصحابه في تأجيل دفع الزكاة على ما يحدثنا بعض الرواة[1] انهم فسروا الآية التي وردت في سورة التوبة : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾[2] .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٨٥ : الطبعة الأولى بمصر .
(٢) التوبة : ١٠٣ .

بأنها تتضمن ضرورة صلاة النبي عليهم صلاة تكون سكناً لهم ، ليأخذ صدقة من أموالهم يزكيهم بها ـ وتلك الصفات ، برأيهم ، لا تتحقق في غير النبي ، لأن غير النبي ـ بنظرهم ـ لا يطهر الناس ، ولا يزكيهم بأخذ الصدقة منهم ، ولا تكون صلاته سكناً لهم ـ أي أنهم بعبارة أخرى ، ترددوا في إعطاء الزكاة إلى غير النبي إلى أن يثبت لهم وجود من يمثله ، وهو أمر دون شبك ، لا يعني عدم اعترافهم بالزكاة كأساس من أسس الدين ـ لأنهم لم يجحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا :

إنه وجوب مشروط . فأتولوا ، وربما أخطأوا ، كما تأول خالد فأخطأ ـ برأي أبي بكر .

وإذا كان أبو بكر قد تجاوز عن خالد لأنه تأول الخطأ ، أفلا يجوز أن يقال عن أولئك ، على أسوأ الفروض : أنهم تأولوا فأخطأوا !!

يتضح من كل ما ذكرنا أن خالد بن الوليد وأصحابه قد غرروا بضحاياهم وخدعوهم تحت ستار الدين ، فجردوهم عن السلاح أولاً وقتلوهم ـ بعد ذلك ـ على الشكل الذي ذكرناه ـ ويلوح للباحث في شهادة أبي قتادة أن خالداً ـ لمرض في نفسه ـ ربما كان له صلة بأم تميم زوج مالك ، قد أخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم والسلب والنهب ، وهي أمور أبعد ما تكون عن جوهر الدين .

وقد وصفهم الله في كتابه بالغلظة والنفاق .

هذا إلى المؤرخين كما سلف أن ذكرنا :

لم يؤيدوا خروج مالك وصحبه على مبادىء الدين ، أو منعهم الزكاة أو جحودهم وجوبها ، فهم إذن لا يستحقون القتل إطلاقاً ، فكيف به وقد وقع بذلك الشكل من الغدر !!

إن الشيء الذي كانوا بحاجة إليه هو التنبيه والإرشاد ، هذا إذا كانوا مخطئين ، في تفسير الآية التي ذكرناها في قضية الزكاة .

أما مالك نفسه فقد كان مسلماً ، بشهادة عمر بن الخطاب ؛

وأن خالداً بشهادة عمر كذلك ؛ قد اعتدى عليه ونزى على زوجه .

وهناك أمر آخر لا بد من ذكره في هذه المناسبة لتعلقه بمبدأ عام يتصل بموضوع المتهمين بالامتناع عن دفع الزكاة ، لا بموضوع مالك بن نويرة حسب ما ذكره البخاري حين قال[1] :

« حدثنا يحيى بن بكير ؛ حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب ، أخبرني عبيد الله ابن عتبة أن أبا هريرة قال : لما توفي النبي واستخلف أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر :

يا أبا بكر كيف تقاتل الناس . وقد قال رسول الله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فمن قال ذلك فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » . وهناك أمور أخرى اقترفها خالد بن الوليد لاتقل شناعة عما ذكرناه ـ منها : اغتياله سعد بن عبادة ـ وهو في محل إقامته في الشام ـ في أواخر خلافة أبي بكر ، أو مساهمته بذلك الاغتيال .

ومنها ما رواه الطبري[2] حين قال :

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحق قال : حدثني بعض أهل العلم عن رجل من جزيمة قال : لما أمرنا خالد بوضع السلاح قال رجل منا ـ يقال له جحدم : ويلكم يا بني جذيمة .

ما بعد وضع السلاح إلا الأسار ثم ما بعد الأسار إلا ضرب الأعناق .

والله لا أضع سلاحي أبداً. قال : فأخذه رجال من قومه ، فقالوا : يا جحدم ؛ أتريد أن تسفك دماءنا ! إن الناس قد أسلموا . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد ؛ فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل منهم من قتل .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا عليّ أخرج إلى هؤلاء القوم فأنظر في أمرهم ، وأجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج عليّ ومعه

---

(١) صحيح البخاري ٨ / ٥٠ طبعة مصر .
(٢) « تاريخ الأمم والملوك » ٣ / ١٢٤ .

مال قد بعثه رسول الله به ، فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال .

حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . فقال لهم عليّ حين فرغ منهم : ابقي لكم دم أو مال لم يرد ؟ قالوا : لا ، قال :

فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره الخبر . فقال : أصبت وأحسنت » .

فإذا كان هذا عمل خالد في زمن النبي ، فكيف به وقد انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى !!

ومع ذلك كله ، فقد تجاوز عنه أبو بكر ، لأنه تأول فأخطأ « على حد تعبيره » فأختلفت سيرة أبي بكر ، في هذه القضية الخطيرة ، عن سيرة عمر الذي عزل خالداً . فقد كان أول كتاب كتبه عمر ـ على ما يقول ابن الأثير[1] ـ موجهاً « إلى أبي عبيدة ابن الجراح بتولية جند خالد ، وبعزل خالد ، لأنه كان عليه ساخطاً في خلافة أبي بكر كلها لوقيعته بأبن نويرة . . . وقال عمر : لا يلي خالداً لي عملاً أبداً .

وكتب إلى أبي عبيدة . . أن أنزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله » .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول :

أن ليس هناك شيء يصح أن يدعى « سيرة الشيخين » من حيث التوافق التام في جميع التصرفات العامة الدينية والزمنية ـ ولعل ذلك أحد الأسباب التي أدت بالإمام ـ حين عرض عليه ابن عوف الخلافة وقت الشورى ـ إلى عدم الموافقة على الشرط الثالث « سيرة الشيخين » . وعليّ بموقفه هذا ، قد استبعد « سيرة الشيخين » من أن تصبح بحد ذاتها سنة تتبع ، لعدم وجود ما يبرر أتباعها ـ من الناحية الدينية ـ ما دام القرآن وسنة الرسول هما دستور الإسلام بنظره .

وهناك أمر آخر لا بد من ذكره في هذه المناسبة ، هو أن جواب الإمام ، بالصيغة التي ورد فيها ، كان يدل ـ دلالة قاطعة وصريحة ـ على التهيؤ لتحمل المسؤولية ، وعدم نثر الوعود التي لا يمكن الالتزام بها أثناء تسلم المنصب الخطير .

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٩٣ .

فعليّ لا يريد أن يلزم نفسه مقدماً بشيء يستحيل عليه أن يعمل وفق مستلزماته بعد تسلمه الخلافة للأسباب التي ذكرناها . ولعل الشيء الذي يبدو غريباً ـ في أمر الشورى ـ هو قبول عليّ الاشتراك فيها مع علمه بأفضليته وأحقيته بالخلافة . غير أن ذلك الاستغراب يزول عندما نتذكر أن علياً صرح بأنه يدخل الشورى ، لأن إبن الخطاب قد أهله الآن للخلافة « وكان من قبل يقول : إن النبوة والخلافة في وبيت واحد لا تجتمعان »[1] .

أما موقفه من شرط ابن عوف فأمر كان متوقعاً ـ ذلك ، لأن الإمام كان على يقين من أن كلا من الشيخين قد سار في حدود اجتهاده الشخصي ، وأنه من غير الممكن أن يلتزم هو بالكتاب والسنة وبسيرة الشيخين ـ وتتجلى روعة موقفه هذا إذا ما تذكرنا موقف زميله عثمان الذي كان ينعم بالإجابة لابن عوف حتى كسب الخلافة ، ولكنه لم يسر ـ كما سنرى ـ على الكتاب والسنة ، بله سيرة الشيخين ؟؟

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود : « الإمام علي بن أبي طالب » ١ / ٢٨ .

حـديـث السقيفـة

ج ـ عثمان بن عفان

« فقام ثالوث القوم ، وقام بنو أمية يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع . . . إلى أن أنتكث فتله ، وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنته . . . فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ، ينثالون عليّ من جانب حتى لقد وطىء الحسنان ، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى وقسط آخرون »[1] .

إرتقى عثمان بن عفان منبر النبي بعد وفاة عمر وبالشكل الذي وصفناه في قصة « الشورى » . وأول عمل قام به الخليفة الجديد هو : تعيين ذويه وأقربائه من الأمويين وآل أبي معيط مستشارين ، وأمراء على الأمصار ، وبخاصة أولئك الذين كانت لهم أو لآبائهم ، سيرة غليظة معروفة في محاربة الإسلام ونبيه ، الأمر الذي أورثهم احقاداً ـ من الجاهلية ـ على الرسول وأهل بيته وتعاليمه ، زرعها أمية بن عبد

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ١ / ٥٠ ـ ٦٧ ، الخضم : أكل بكل الفم ، وضده القضم وهو : أكل بأطراف الأسنان ـ وقيل : الخضم أكل الشيء الرطب ، والقضم أكل الشيء اليابس ـ والمراد ـ على التفسيرين ـ لا يختلف ، وهو : أنهم على قدم عظيمة من النهم وشدة الأكل وامتلاء الأفواه .
قال أبو ذر عن بني أمية : يخضمون ونقضم .
وانتكث فتله : انتقض ـ وأهز عليه عمله : ثم فتله ـ وكبت به بطنته ، كبا الجواد : إذا سقط بوجهه ، والبطنة : الإسراف في الشبع ـ وثالث القوم عثمان . . . والعطفان . الجانبان من المنكب الى الورك . . . والمعنى . خدش جانباي ، لشدة الاحتكاك منهم والازدحام . . وعرف الضبع ثخين ، ويضرب به المثل في الازدحام ـ وينثالون . يتتابعون . . و كربيضة الغنم . يصف شدة ازدحامهم حوله ، وجثومهم بين يديه . . فأما طائفة الناكثين . فهم أصحاب الجمل ـ والقاسطين . أصحاب صفين . والمارقين . أصحاب النهروان .

شمس ونجله حرب ، وتعهدها من بعدهما : أبو سفيان ، وزوجه هند بنت عقبة ، ونجلهما معاوية الذي حارب النبي في بدر مع أبيه فهرب بعد أن قتل أخ له ، وأسر آخر كما سنرى .

وقد أدى اعتماد عثمان على اولئك النفر ـ وعلى مروان بن الحكم ـ إلى تقويض دعائم الخلافة الإسلامية ، وطوح بحياة عثمان وعلي مروان بن الحكم ـ إلى تقويض الخلافة الإسلامية ، وطوح بحياة عثمان وعلي من بعده ، وبالتالي إلى أندحار مبادىء العدالة الإجتماعية التي تبناها الإسلام ، وأراد الرسول الكريم بثها بين الناس على أختلاف أجناسهم ومواقعهم الجغرافية .

وقد زرعت تصرفات الأمويين ـ الذين اعتمد عليهم عثمان في تدوير شؤون المسلمين ، كما سنرى ، بذور الفساد والتفسخ في الخلق العربي عند الحكام والمحكومين على السواء ، فأصبح الحكام ـ بعد مصرع الخليفة الثالث كما سنرى ـ يستعملون شتى أساليب الغدر والمواربة ، والكذب ، والدس ـ وأضرابها من الرذائل السياسية والخلقية ـ لكسب ولاء الجماهير لحكمهم الفاسد من جهة ، وللإيقاع بخصومهم من جهة أخرى ، وألف المحكومون ـ إلا ما ندر ، هذه التصرفات الملتوية ، مع توالي الأيام ، وأستحسنوها وكيفوا سلوكهم وفقاً لها .

وبما أننا لا نؤرخ ـ في هذه الدراسة ـ أثر الأمويين[1] في الخلق العربي والإسلامي ، وإنما نحن بصدد البحث في الدور الذي لعبوه في خلافة عثمان ، فسوف نحصر بحثنا في هذه النقطة المعينة ، ولكي تفهم ذلك الأثر على وجهه الأكمل نرى لزاماً علينا أن نستعرض مواقفهم من الإسلام في عهد الرسول :

لقد ألب الأمويون كفار قريش على حرب النبي صلّى الله عليه وسلم ـ فوقعت بدر ـ وقتل منهم حنظلة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وعبيدة بن سعيد بن العاص ، ابن أمية بن عبد شمس .

والوليد بن عقبة بن ربيعة بن عبد شمس « صهره أخو هند زوج أبي سفيان ،

---

(١) ربما ساعدتنا الظروف في المستقبل فقمنا بدراسة ذلك بشيء من التفصيل . راجع الصراع بين الأمويين ومبادىء الإسلام ـ المؤلف .

وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعقبة بن أبي معيط « والد الوليد أخي عثمان لأمه » .

وأسر من الأمويين يوم بدر أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ، والحرث بن وجزة بن أبي عمر بن أمية بن عبد شمس .

وكان عمرو بن أبي سفيان ـ زوج بنت عقبة بن أبي معيط ـ من أسرى بدر ـ كما ذكرنا ـ فأقترح بعض المقربين إلى أبي سفيان أن يفدي عمرواً ؟ فأجاب : « أيجمع عليَّ مالي ودمي ؟ قتلوا حنظلة وأفدي عمرواً !! دعوه في أيديهم . . . وبينما هو ـ أي عمرو ـ كذلك محبوس في المدينة إذ خروج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف . . . معتمراً . . . وكان شيخاً مسلماً . . . فعدا[1] عليه أبو سفيان بمكة فحبسه بإبنه عمرو ، ثم قال مفتخراً :

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه ... تعاقدتموا لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلة ... لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا[2]

وقالت هند بنت عتبة ـ زوج أبي سفيان ، وأم معاوية ـ تبكي اباها يوم بدر :

يريب علينا دهرنا فيسؤونا ... ويأبى فما نأتي بشيء نغالبه
فأبلغ أبا سفيان عني مالكاً ... فإن ألقه يوماً فسوف أعاتبه
فقد كان حرب يسعر الحرب إنه ... لكل امرىء في الناس مولى يطالبه[3]

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول أن الأمويين قد أصيبوا بنكسة س مريعة في بدر ، فتحركت حفائظهم ، وأثيرت ضغائنهم القديمة ، وأحقادهم الجديدة ، فألبوا من جديد كفار قريش ، وألبهم الكفار ، على حرب النبي .

وكان أبو سفيان « رأس المؤلبين والحاقدين » قد هيأ كفار قريش ـ وهيئوه م لإعلان حرب جديدة على النبي !!؟ وتجهز الناس وأرسلوا أربعة نفر منهم عمرو بن

---

(١) على الرغم مما بين الطرفين من عهد بعدم التعرض للحجيج أو المعمرين الا بخير .
(٢) ابن هشام « سيرة النبي محمد » ٢ / ٢٩٤ .
(٣) ابن هشام : سيرة النبي محمد ٢ / ٤١٤ ، ٤١٥ .

العاص . . . فساروا في العرب يستنفرونهم .

وكان أبو سفيان قائد الناس ، فخرج بزوجه هند . . وخرج غيرهم بنسائهم . . الحرث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد أخت خالد . . . وعمرو بن العاص بريطة بنت منبه . . وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين »[1] .

فخرجت قريش « بحدها وأحابيشها ومن معها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن إلتماس الحفيظة ، ولئلا يفروا .

فخرج أبو سفيان بن حرب قائد الناس ومعه هند . . . وكانت هند كلما مرت بوحشي - أو مر بها - قالت إيه أبا دسمة ! استف واشتف .

وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين . . وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى ،[2] وقامت هند في النسوة اللائي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم وأنشدت هند :

ويَـهـا بـني عـبـد الـدار ويَـهْـا حـمـاة الأديـار
ضرباً بكل بتار
إن تـقـبـلوا نـعـانـق ونـفـرش الـنـمـارق
أو تـدبـروا نـفـارق فـراق غـيـر وامـق[3]

وأنشد عمرو بن العاص يوم أحد يصف خروجهم لقتال النبي :

خـرجنـا من الفيفـا عليهم كـأننـا مع الصبح رضْوَى الحبيك المنطَّق
فـلما راعهم بـالـشـر إلا نجـاءة كـراديس خيل في الأزقة تمـرق[4]

ووقفت هند والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب الرسول .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ / ١٠٣ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٣ / ١٠ ، ١٤ .
(٣) ابن هشام « سيرة النبي محمد » ٣ / ١٢ ، ١٣ .
(٤) المصدر نفسه ٣ / ١١ .

« يجد عن الآذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال خدماً » « جمع خدمة وهي الخلخال » وقلائد .

وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها . . ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي صبرٍ ولا أخي وعمه وبكر[1]

وكان الحليس بن زَبان « على ما يروي ابن هشام في سيرة النبي محمد ٢ / ٤٤ ، ٤٥ » قد « مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب ـ وهو جثة هامدة ـ ويقول : ذق عُققُ .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدراً للعام القادم » ـ ثم التفت الى زوجه هند وأنشد مفتخراً[2] :

أباك وإخواناً له قد تتابعوا وحق لهم من عبرة بنصيب
وسلى الذي قد كان في النفس أنني قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرماً[3] كريماً ومصعباً وكان لدى الهيجاء غير هيوب

وكانت هند ـ حين انصرف المشركون منتصرين من احد ـ تنشد :

رجعت وفي نفسي بلابل جمه وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
ولكنني قد نلت شيئاً ولم يكن كما كنت ارجو في مسيري ومركبي[4]

أما إسلام هند ـ في الظاهر ـ فقد حصل بالشكل التالي :

---

(١) المصدر نفسه ٣ / ٤١ .
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢١ ، ٢٢ .
(٣) القرم : الفحل الكريم من الإبل ، والمصعب ، الفحل من الإبل ـ كناية عن حمزة ابن عبد المطلب .
(٤) ابن هشام « سيرة النبي محمد » ٣ / ١٥٩ .

« لما فتح النبي مكة حضرت اليه هند مع نساء مكة ليبايعنه .

فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط شروط الإسلام عليها . . فأجابته بأجوبة قوية فمما قاله لها : تبايعيني على أن لا تقتلي اولادك ؟! فقالت هند :

أما نحن فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر . . فقال : وعلى الا تزنين !؟

فقالت هند : وهل تزني الحرة ؟ قالوا : فالتفت رسول الله الى العباس وتبسم »[1] .

يتضح مما ذكرنا جانب من جوانب تعبير الأمويين عن مقتهم للدين الحنيف ولصاحبه ، فقد شنوها ـ كما رأينا ـ حرباً شعواء لا هوادة فيها على النبي ، غير أنهم اندحروا في بدر ـ كما رأينا ـ وكادوا ينالون من النبي في موقعة أحد .

فقتلوا عمه الحمزة ومثلوا به على شكل من الوضاعة والبشاعة قل أن يعثر المرء على مثلهما في التاريخ . ولولا أنه خيل إليهم أن الرسول قد قتل لما رجعوا من المعركة .

غير أنهم سرعان ما أجمعوا أمرهم على الرجوع الى النبي في أحد حينما بلغهم انه نجا من سيوفهم الظالمة فلقى « معبد الخزاعي » أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء .

وقد اجمعوا الرجعة الى رسول الله وأصحابه ، وقالوا :

أصبنا جل أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، لنَكرَّنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم ـ فلما رأى ابو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟

قال : محمد ، قد خرج في أصحاب يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً . . . قال : فوالله لقد أجمعنا الكر عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال : فإني أنهاك عن ذلك . . . قال : فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه »[2] .

---

(١) ابن الطقطقي الفخري في « الآداب السلطانية » ص ٧٦ ، ٧٧ لعل ابتسامة النبي تشير الى حادثة الزنى التي رمى بها الفاكهة بن المغيرة زوجه هند ، فطلقها فتزوجها أبو سفيان .

(٢) الطبري « تاريخ الأمم والملوك » ٣ / ٢٨ ، ٢٩ .

ولكن إخفاق أبي سفيان « في مؤامرته المسلحة لِوَ أدِ الإسلام والمسلمين في احد » لم يثنه عن مواصلة الكفاح المرير لإثارة وقائعَ أخرى ضد النبي .

وقد نذر أبو سفيان « أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً[٢] في كل فرصة ملائمة للإجهاز عليه ، وعلى الدين الحنيف .

فألب الأحزاب في حرب الخندق . . . وما بعدها . . . ولم يعلن إسلامه ـ في الظاهر ـ إلا حين رأى أن ذلك أجدى من السيف لتحطيم الإسلام .

وهكذا كان أبو سفيان يثيرها حروباً متصلة الحلقات للإيقاع بالنبي وبدينه وبصحبه ، فأثار حرب بدر ، وأحد ، والاحزاب في الخندق ، وتآمر مع اليهود للوصول الى تحقيق غرضه الدنيء .

لقد مر بنا طرف من حوادث إيذاء قريش ـ وفي مقدمتهم بنو أمية من النساء والرجال ـ للنبي ، وللمسلمين ، وللعقيدة الإسلامية طوال مكوث النبي في مكة « وقد ظهر ذلك الإيذاء بشكل فردي مبعثر أحياناً ، وبشكل جماعي منظم أحياناً أخرى .

وتفنن المشركون من الأمويين خاصة في ابتداع الوسائل المختلفة لإيذاء الرسول .

فبعثوا النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط[١] إلى أحبار اليهود لتأليبهم على النبي وتسفيه رسالته ، وأرسلوا عبد اللهبن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص[٢] إلى الحبشة لإقناع النجاشي بطرد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة ، تخلصاً من إيذاء المشركين .

وقد نزل قرآن في ذم كثير من أولئك الذين بالغوا في الاعتداء على الرسول ، كأم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب[٣] .

---

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ٢ /٩٨ .
(٢) ابن هشام : « سيرة النبي محمد » ١ /٣٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٥٧ ـ ٣٦٠ .
(٤) المصدر نفسه ١ / ٣٧٦ ـ ٣٧٨ .

وكان ذلك كله يجري بمكة طوال مكوث النبي فيها .

فلما هاجر النبي الى المدينة واصل كفار قريش ـ تحت زعامة الأمويين من النساء والرجال ـ إيذاء الرسول ، هذه المرة عن طريق الحرب ، فامتشق[٤] الأمويون الحسام وألبوا قريشاً ، وحاربوا النبي في سلسلة من الحروب الفاشلة التي ذكرناها .

ولما رأى المشركون ـ من بني أمية وأتباعهم ـ فشلهم المتواصل لجأوا الى اتباع اسلوب جديد للإيقاع بالإسلام ـ وكان هذا الإسلوب ـ في واقعه ـ أكثر الاساليب إيجاعاً للعقيدة الإسلامية .

فتقمص قادتهم الإسلام والتزموا ببعض مظاهره ليتمكنوا من إعلانها حرباً شعواء على الدين من داخله ؛ بعد أن أعياهم أمره في حربهم إياه من الخارج .

فأسلم أبو سفيان ـ قائدهم ـ في الظاهر يوم فتح مكة بعد أن لجأ الى العباس عم النبي مضطراً والتمسه أن يأخذه الى الرسول ، فلما أتى به العباس قال له رسول الله : ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بأبي انت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !

والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا ! فقال :

ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما هذه ففي النفس منها شيء .

فقال العباس : ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك ! فأسلم »[١] .

وقد حاول ابو سفيان أن يضبط أعصابه ـ التي نشأت على الكفر وتشربت ببغض الإسلام ـ فتظاهر بنبذ عبادة الأوثان والاعتراف بالدين الجديد .

ولكن ذلك لم يعصمه في مناسبات كثيرة من غمز الدين الجديد ، من ذلك ، مثلاً : ما ذكره ابن هشام[٢] حينما خاطب الحرث بن هشام أبا سفيان بعد فتح مكة

---

(١) امتشقته : اقتطعته ، صحاح اللغة مادة « مشق » .

(٢) ابن خلدون « كتاب العبر » . . . الخ ٢ / ٢٣٤ .

(٣) سيرة النبي محمد ٤ / ٢٣ .

بقوله : « أما والله لو اعلم أن محمداً نبي لاتبعته !! فقال أبو سفيان مسلماً صحيح الإسلام لا نبرى لتنفيذ زعم ذلك المشرك البغيض .

أما إقراره لرأي الحرث ـ ضمنياً ـ كما يبدو من عبارته فدليل قاطع على وثنيته .

ذلك ما يتصل بأبي سفيان ، أما ما يتصل بغيره من شيوخ الأمويين ـ الذين اعتمد عليهم عثمان في تدوير شؤون المسلمين ـ فمعروف لدى من لهم أدنى إلمام بالتاريخ الإسلامي في عهد الرسول ، فالحكم ـ أبو مروان وزير عثمان ـ قد خاض من فحش القول مع الرسول ما يندى من ذكره جبين المسلم ـ الأمر الذي اضطر النبي الى نفيه من المدينة الى الطائف ، قال البلاذري[1]:

« حدثني محمد بن سعد الواقدي عن محمد بن عبد الله الزهري ، وحدثني عباس ابن هشام الكلبي عن أبيه عن جده ، أن الحكم بن العاص بن أمية عم عثمان ابن عفان كان جاراً للنبي في الجاهلية ، وكان أشد جيرانه أذى له في الإسلام .

فكان يمر خلف النبي فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه ، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه . . . واطلع على ذلك رسول الله ذات يوم في بعض حجر نسائه فعرفه وخرج إليه . . . ثم قال : لا يساكنني هو ولا ولده فغربهم جميعاً الى الطائف ، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة » .

وابن أبي سرح الذي اختبره النبي في كتابة الوحي فحرف وبدّل في التنزيل ، فأهدر النبي دمه .

والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي نزل فيه قرآن يصفه بالنفاق في قضية بني المصطلق المعروفة ـ قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة**[2] ﴾ .

وكان المسلمون في عهد الرسول « يسمون أبا سفيان وأمثاله من الذين أسلموا

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٢٧ .

(٢) الحجرات : ٦

بأخرة ، ومن الذين عفا النبي عنهم يوم الفتح بالطلقاء » .

ومهما يقال عن معاوية فهو ابن أبي سفيان قائد المشركين . . . «وابن هند التي أغرت بحمزة حتى قتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده »[1] .

وقد ذكر الزبير بن بكار في الموفقيات « عن المغيرة بن شعبة قال : قال لي عمر يوماً : يا مغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ أصيبت ؟ قلت : لا .

قال : أما والله ليعورن بنو أمية الإسلام كما أعورت عينك هذه ، ثم ليعمينه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء »[2] .

وذكر البخاري في صحيحه ٨ / ٤٩ « حدثنا خلاد بن يحيى ، حدثنا سفيان عن منصور ، والأعمش عن أبي واتل عن ابن مسعود قال : قال رجل يا رسول الله أتؤ اخذنا بما عملنا في الجاهلية قال: من أحسن في الإسلام لم يؤ اخذ بما عمل في الجاهلية .

ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » .

لقد ظهر من تقريب عثمان للأمويين في خلافته وإيثارهم ـ دون غيرهم ـ على سائر المسلمين أشكالا مختلفة : أوضحها الجانب المالي ، والجانب السياسي الإداري ـ وبقدر ما يتعلق الأمر بالجانب المالي يمكننا أن نقول : إن عثمان أغدق العطايا على أقربائه من بيت مال المسلمين دون حساب ، من ذلك ، مثلا : أن عثمان قد منح مروان بن الحكم ـ زوج ابنته أم أبان ، كما منح ابنته عائشة ـ التي زوجها من الحرث بن الحكم أخي مروان ـ يوم العرس « مئتي الف من بيت المال ، سوى ما كان قد اقطعه من قطائع ، فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازنه حزيناً . . يرجو أن يقيله .

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سخاء عثمان .

وذات اليوم الأول لخلافته منح أبا سفيان ـ شيخ بني أمية ـ مئة ألف درهم[3] ، وأعطى عثمان كذلك « رجلاً من ذوي قرابته مقداراً ضخماً من بيت

---

(١) الدكتور طه حسين : الفتنة الكبرى ، علي وبنوه ١٥٥ .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ١١٥ .

(٣) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٢٠ ، ٢١ .

المال .

واستكثر عامله على بيت المال هذا المقدار فلم يخرجه ، فألح عثمان . فأبى الخازن . فلامه عثمان . . . وقال : ما أنت وذاك ؟ إنما أنت خازن ! قال له صاحب بيت المال : ما أراني خازناً لك . .

لقد كنت أراني خازناً للمسلمين ، ثم أقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي وجلس في داره »[1] وتفصيل ذلك على ما رواه البلاذرى « أنساب الأشراف ٥ / ٥٨ ، ٥٩ » أنه : « كان على بيت مال عثمان عبد الله بن الأرقم . . فاستسلف عثمان من بيت المال مئة ألف درهم .

ثم قدم عليه عبد الله بن أسيد بن أبي العيص من مكة ، وناس معه غزاة ، فأمر لعبد الله بثلاثمائة ألف درهم ؛ ولكل رجل من القوم بمئة ألف درهم ـ وصك بذلك الى ابن الأرقم فاستكثره ورد الصك له .

فقال عثمان : إنما أنت خازن لنا فما حملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أراني خازناً للمسلمين ، وإنما خازنك غلامك والله لا ألى لك بيت المال أبداً .

وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر . .

وبعث عثمان الى عبد الله بن الأرقم ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبلها » .

وقد استمر عثمان على هذا المنوال من إيثار بني عمومته والمقربين إليه من بيت المال على حساب المسلمين ، حتى تحدث الناس ذات يوم بأن عثمان أخذ من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله فغضب الناس لذلك ، ولاموا عثمان فيه حتى أغضبوه ، فخطب ، فقال : لنأخذ حاجتنا من هذا الفىء وإن زعمت أنوف اقوام ؟

فقال عمار بن ياسر : أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك .

فقال عثمان : أعلىّ يا ابن المتكأ تجترى !! خذوه ؟ فأخذ .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٩٤ .

ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشى عليه ، ثم أخرج محمولا حتى أتى به منزل أم سلمة زوج النبي ، وظل مغشياً عليه سائر النهار ، ففاته الظهر والعصر والمغرب . فلما أفاق توضأ وصلى وقال .

الحمد لله هذه ليست أول مرة أوذينا فيها في الله ، ويقال : ان أم سلمة ـ أو عائشة ـ أخرجت شيئاً من شعر النبي وثوباً من ثيابه ونعلا من نعاله وقالت :

هذا شعر النبي وثوبه ، ونعله لم يبل وأنتم تعطلون سنته !! .

وضج الناس ، وخرج عثمان عن طوره حتى لا يدري ما يقول »[1] .

وإذا صحت الرواية المذكورة فإن عثمان قد ارتكب خطئين في آن واحد : تبذير اموال المسلمين ، والاعتداء على رجل من خيرة الصحابة .

« ولسنا بحاجة الى أن نناقش في صحة ما جاءت به الرواية من أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في إفريقية . . ومن أنه أعطى الحكم عمه .

واعطى ابنه الحارث ثلثمائة ألف .

وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي ثلثمائة الف .

وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة الف .

وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف ، وأعطى طلحة بن عبيد الله مائة ألف .

واعطى سعيد بن العاص مائة ألف ، وزوج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش ، فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار »[2] .

ويقول البلاذري في هذا الصدد[3] « حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن أسامة بن زيد بن أسلم ، عن نافع مولى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال :

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى » عثمان بن عفان ١٦٧ ، والبلاذري « أنساب الأشراف » ٥ / ٤٨ .
(٢) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٩٣ .
(٣) انساب الأشراف ٥ / ٢٧ / ٢٨ / ٥٢ .

أغزانا عثمان سنة ٢٧ إفريقية ، فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة . فأعطى عثمان مروان بن الحكم خمس الغنائم . . .

وحدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه . . عمن حدثه قال :

كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان من الرضاعة ، وعامله على المغرب ، فغزا إفريقية سنة ٢٧ هـ فافتتحها فابتاع خمس الغنيمة بمئة ألف أو مئتي ألف .

فكلم عثمان فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان . . .

وحدثني ، محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر ، عن ام بكر عن أبيها قالت : قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص .

وحدثني محمد بن حاتم بن ميمون ، حدثنا الحجاج الأعور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة ثلثمائة ألف درهم فوهبها له حين أتاه بها . .

ولما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه .

وأعطى الحارث بن الحكم بن ابي العاص ثلثمائة ألف درهم . .

وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم جعل أبو ذر يتلو قول الله : ﴿ والذين يكنزون الذهب ،[1]﴾ فرفع ذلك مروان بن الحكم الى عثمان . . فأرسل إلى أبي ذر قائلا مولاه : ان انته عما بلغني عنك فقال :

أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله فوالله لسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من سخط الله » .

ولعل تصرف عثمان في بيت المال على الشكل الذي وصفناه ، وإيقاعه بالصحابة الذين اعترضوا على ذلك ، يبدو بشكل أوضح مما ذكرناه إذا قارناه ـ حسب قاعدة : وبضدها تتميز الأشياء ـ بتصرف علي أثناء خلافته في بيت المال ـ

---

(١): التوبة/ ٣٤ .

وبموقفه ممن لامه على اتباعه الحق ، بله الباطل الذي هو اسمى من أن يهبط اليه .

« نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهماً اشترى به خبزاً ، واحتاج الى الإدام فطلب من قنبر خادمهم أن يفتح لهم زقاً من زقاق عسل جاءتهم من اليمن .

فأخذ منها رطلاً ، فلما طلبها عليّ ليقسمها ، قال : يا قنبر ، أظن أنه حدث بهذا الزق حدث !، فأخبره ، فغضب ، وقال : علي بحسين . فقال له : ما حملك أن أخذت من قبل القسمة ؟ قال : إن لنا فيه حقاً فإذا أعطينا رددناه ، قال :

وإن كان لك حق فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم . . ثم دفع الى قنبر درهما كان مصروراً في ردائه ، وقال :

اشتر به خير عسل تقدر عليه »[1] .

وذكر عقيل بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان عندما التحق به فاراً من عدل الإمام « أصابتني مخمصة شديدة . فجمعت صبياني وجئت علياً بهم ، والبؤس والضر ظاهران عليهم ! فقال : ائتني عشية لأدفع إليك شيئاً ، فجئته يقودني أحد ولدى ، فأمره بالتنحي ، ثم قال : ألا دونك ، فأهويت حريصاً قد غلبني الجشع أظنها صرة فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً ، فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جزار[2] .

وإلى هذه الحادثة يشير الإمام في إحدى خطبه :

رأيت عقيلاً وقد املق حتى استماحنى من بركم صاعاً . ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غير الألوان من فقرهم ، عاودني مؤكداً وكرر على القول مردداً ، فأصغيت إليه سمعي ، فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقاً طريقي ، فأحميت له حديدة ، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها . .

---

(١) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٨١ ـ ٨٣ . هذا النص مخالف لما عليه الشيعة الإمامية « الناشر » .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة .

فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه !! »[1] .

ويتجلى أروع مواقف الإمام في ضبط النفس في معاملته للخوارج الذين هم على باطل ، من وجهة نظره على كل حال فلم نشهد له موقفاً معهم ـ على باطلهم ـ يشبه موقف عثمان مع عمار ـ على حقه ـ يقول الدكتور طه حسين[2] .

« جاء علياً احد الخوارج ـ « وهو الحريث بن راشد السامي ـ فقال له : والله لا أطعت أمرك ، ولا صليت خلفك . . فلم يغضب عليّ لذلك ، ولم يبطش به إنما دعاه الى أن يناظره ويبين له وجه الحق لعله أن يتوب إليه ، فقال الحريث : أعود غداً ، فقبل منه علي . » .

ولم يقف تمزيق عثمان لأموال المسلمين عند حد تفريقه إياها على الاصهار وذوي القرابة ؛ إنما تعداه الى الأصدقاء والمقربين والأتباع .

فقد وصل عثمان « الزبير بن العوام بستمائة الف .

ووصل طلحة بمائة ألف ونزل عن دين كان له عنده »[3] .

وبقدر ما يتعلق الأمر بهذا الجانب من جوانب سياسة ابن عفان يمكننا أن نقول بنشوء هوة سحيقة بين المقربين إليه ـ من الأقرباء والأصهار والاصدقاء من جهة ـ وبين سائر المسلمين من جهة أخرى .

فبينما نجد أكثرية المسلمين تعيش على الطوى ـ ويحرم القسم الكبير منها حقه في بيت المال ـ نرى المقربين الى الخليفة ـ بالإضافة الى ذوي قرابته ـ الذين استأثروا بحصة الأسد من غنيمة أموال المسلمين ، يبلغ ترفهم وثراؤهم الى الأذقان .

ففي أيام عثمان على ما يروي المسعودي[4] .

---

(١) المصدر نفسه ٣ / ٨٠ .

(٢) « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه »ص ١٢٥ .

(٣) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ٧٧ .

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٢ / ٢٢٢ .

« اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم : الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ـ وهو سنة ٣٣٢ هـ اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ تنزلها التجار وأرباب المال . .

وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم .

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير الف فرس وألف أمة . .

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره المشهورة في الكوفة .

وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار ـ وقيل أكثر من ألف .

وبناحية سراة اكثر مما ذكرنا ـ وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج .

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه ألف فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم .

وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً » . .

يتضح مما ذكرنا « أن السياسة المالية التي اصطنعها عثمان منذ أن نهض بالخلافة كانت كلها موضع نقمة وإنكار من أكثر الذين عاصروه ومن أكثر الرواة والمؤرخين .

كان عثمان ـ قبل أن يلي الخلافة ـ كثير المال .

فلما تولى الخلافة شغلته عن التجارة . . ولم يكن له بدٌ من أن ينفق على نفسه وأهله وذوي قرابته بعد الخلافة كما كان ينفق قبلها ، فكان يرى فيما يظهر أن الخلافة يجب ألا تغير من سيرته في المال شيئاً ، فإذا لم يسعفه ماله الخاص وجب أن تسعفه الأموال العامة »[1] .

---

(١) الدكتور طه حسين . « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٩٠ .

وإذا استباح الخليفة لنفسه أن ينتفع ببيت المال لأغراضه الآنفة الذكر .

فإن ذلك قد شجع عماله على السير في مال المسلمين سيرة إمامهم ، فأعطوا وأقرضوا والتوى بعضهم بالدين ، فاستقال عبد اللهبن مسعود في الكوفة .

كما استقال عبد الله بن الأرقم في المدينة .

وإذا أطلق الإمام يده وأطلق العمال أيديهم في الأموال العامة على هذا النحو لم يكن غريباً أن يحتاج الجند الى المال فلا يجدون ، وأن يضطر الإمام أن ينفق على الحرب من أموال الصدقة فبعرض نفسه لما تعرض إليه من الإنكار . .

وإذا أطلق يده في الأموال العامة على هذا النحو لم يكن غريباً أن تمتد هذه الأيدي الى أموال الصدقة للانفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم .

كما يروى أن عثمان أرسل الحارث بن الحكم مصدقاً على قضاعة . فلما جاء بصدقاتهم وهبها له . . . على أن عطاء عثمان لم يقتصر على السائل من المال بل تجاوز الى الجامد ايضاً .

فقد نقم الناس من عثمان أنه كان يقطع القطائع الكثيرة في الأمصار لبني أمية .

وقد دافع أهل السنة والمعتزلة عن هذا الإقطاع بأن عثمان إنما أقدم عليه استصلاحاً لهذه الأرض . .

ويرد الشيعة عليهم بأن عثمان نفسه لم يدافع عن نفسه هذا الدفاع ، وكان من الممكن أن يرد الشيعة أيضاً بأن بني أمية لم يكونوا إخصائيين من دون قريش في استصلاح الأرض »[1] .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول مع الدكتور طه حسين[2] « إن السياسة المالية لعثمان كانت تنتهي الى نتيجتين كلتاهما شر : الأولى انفاق الأموال العامة في غير حقها . .

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) المصدر نفسه : عثمان بن عفان ص ١٩٥ .

والاخرى إنشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لا حد له ، فتتوسع في ملك الأرض واستغلال الطبقة العاملة ، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها ، ثم تتنافس في التسلط » .

وقد حدث ذلك بالفعل واستفحل في خلافة الإمام على كما سنرى .

ذلك : ما يتعلق بأسلوب عثمان في صرف المال وبسياسته العامة في هذه الناحية . . أما ما يتعلق بسياسته الإدارية فمن الممكن أن يقال عنه :

بأن عثمان كان يعتمد ـ بالدرجة الأولى ـ من حيث الولاة والمتنفذين ، على مروان بن الحكم ـ مستشاره ووزيره ـ وعلى ولاة اخرين من أصهاره وذوي قرابته ـ مر بنا ذكر أسمائهم ـ وقد أخذ هؤلاء الولاة القساة الفجرة ، بدورهم ـ كما سنرى .

يعبثون بشؤون المسلمين والإسلام بشكل لم يألفه الناس من قبل .

وعثمان من ورائهم يسندهم ويختلق لهم المعاذير لتبرير أفعالهم الناشزة .

وأنكى من ذلك أن عثمان نفسه كان ـ على الرغم مما عرف فيه من وداعة ولين ـ على جانب كبير من القسوة في معاملة أجلة الصحابة ، بله عامة الناس . .

وموقفه الغليظ من عبد الله بن مسعود ، وأبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، معروف لدى الكثيرين .

والانكى من ذلك كله :

أن هؤلاء الرجال الصالحين ـ بشهادة الرسول ـ قد امتهنهم الخليفة واعتدى عليهم بالضرب المبرح والنفي والكلام الجارح ، دون أن يقوموا بعمل يستحقون عليه العقاب .

اللهم إلا إذا اعتبرنا عتابهم لعثمان على بعض تصرفاته الناشزة شيئاً يستحقون عليه العقاب . قال البلاذري[1] « حدثنا محمد بن عيسى بن سميع عن محمد بن أبي ذئب عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال :

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ٥ / ٤٩ .

ولما ولي عثمان كره ولايته نفر من أصحاب رسول الله . . وكان كثيراً ما يولى من بني أمية من لم يكن له مع النبي صحبة . وكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم فلما كان في الست الأواخر استأثر ببني عمه فولاهم .

وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر فمكث فيها سنين ، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه . . . فكتب اليه كتاباً يتهدده فيه ، فأبى أن ينزع عما نهاه عثمان عنه .

وضرب بعض من كان شكاه الى عثمان من أهل مصر حتى قتله .

فخرج من أهل مصر وفد الى المدينة فنزلوا المسجد وشكوا ما صنع بهم ابن أبي سرح في مواقيت الصلاة الى أصحاب محمد ، فقام طلحة الى عثمان فكلمه بكلام شديد .

وأرسلت إليه عائشة تسأله أن ينصفهم من عامله » .

وقد كتب إلى عثمان جماعة من الصحابة فيهم : المقداد ، وعمار ، وطلحة ، والزبير ، على ما يقول البلاذري :[1] « كتاباً عدوا فيه أحداث عثمان وخوفوه ربه وأعلموه أنهم موائبوه إن لم يقلع ، فأخذ عمار الكتاب وأتياه به ، فقرأ سطراً منه .

فقال له عثمان : أعليّ تقدم من بينهم ؟ فقال عمار : لأني أنصحهم لك .

فقال: كذبت يا ابن سمية ، فقال : انا والله ابن سمية وابن ياسر .

فأمر غلمانه فمدوا بيديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق ، وكان ضعيفاً كبيراً ، فغشي عليه » .

ويلوح الباحث ـ في ضوء ما ذكرناه ـ أن السياسة العامة للدولة كانت مبنية ـ في جوانبها المالية والإدراية ـ على العبث بمقدرات المسلمين ، وعلى الخروج على روح الإسلام لكسب ولاء الناس للأمويين من جهة ، وللتنكيل بمن يناوئونهم أو ينتصرون للدين الحنيف وحتى « لسيرة الشيخين » تلك السيرة التي تسلم عثمان الخلافة على أساس السير وفق مستلزماتها كما ذكرنا ـ عند البحث في الشورى ـ من

---

(١) البلاذري « أنساب الأشراف » ٥ / ٤٩ .

جهة اخرى ـ قال الواقدي[1] :

« أنكر الناس على عثمان إعطاءه سعيد بن العاص منه ألف درهم ، فكلمه على وآخرونن في ذلك ، فقال :

إن له قرابة ورحماً ، قالوا : أفما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذو رحم ؟ فقال :

إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي » .

فهل هذه السياسة تتفق مع « سيرة الشيخين » ؟ ويبدو للباحث كذلك . . أن سيرة عثمان في رعيته لم تكن ـ في كثير من وجوهها ـ غير منسجمة مع « سيرة الشيخين » فحسب ، بل كانت « في كثير من الأحيان » غير متفقة ـ كل الاتفاق ـ مع نصوص القرآن وسنة الرسول ـ وجملة القول :

أن عثمان ـ في كثير من تصرفاته ـ بالإضافة الى سياسته المالية التي ذكرناها « وبالإضافة الى سياسته الإدارية التي سنذكرها ، كان مجافياً لروح الإسلام .

ذلك ما يتصل بالسياسة المالية لأبن عفان :

أما ما يتصل بالسياسة الإدارية « والسياسية » فقد اعتمد عثمان في إدارته على ذوي قرابته ـ بالدرجة الأولى ـ وليس في ذلك ضير ، وإن كان الناس ـ منذ قديم الزمان ـ ينكرون على حكامهم إيثار ذوي قرباهم بشؤ ون الحكم والإدارة وما ينتج عنهما . هذا إذا كان ذوو القرابة من أصحاب الكفاءة والسيرة الحسنة ، فكيف بهم إذا كانوا من النوع الذي اعتمد عليه عثمان !؟ فبعضهم نزل بهم قرآن في نفاقهم وكذبهم .

وها نحن نقصّ على القارىء جانباً من سيرتهم على سبيل التمثيل لا الحصر .

ولنبدأ بالوليد بن عقبة بن أبي معيط والي الكوفة ، متتبعين تاريخه منذ عهد الرسول . ذكر ابن هشام[2] أن النبي بعث « إلى بني المصطلق ، بعد إسلامهم ،

---

(١) المصدر نفسه ٥ / ٢٧ .

(٢) سيرة النبي محمد ٣ / ٣٤٠ ، ٣٤١ .

الوليد بن عقبة بن أبي معيط . . . يطالبهم بالصدقة . . فرجع الى الرسول فأخبره : أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم . . . فبيناهم على ذلك قدم وفدهم الى رسول الله ، فقالوا :

يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدي ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعاً ، فبلغنا أنه زعم أنا خرجنا لنقتله .

فأنزل الله فيه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**[1] ﴾ .

وذكر بعض الرواة[2] أن امرأة الوليد بن عقبة جاءت الى النبي تشتكي اليه الوليد لأنه كان يضربها ، فأمرها النبي بالرجوع اليه وإخباره بأن الرسول قد أجارها ، فانطلقت ثم رجعت « فقالت : إنه ما أقلع عني ، فقطع الرسول هدبة من ثوبه ، وقال :

اذهبي بها إليه وقولي : إن رسول الله قد أجارني ، فانطلقت ، فمكثت ساعة ثم رجعت ، فقالت : ما زادني إلا ضرباً » .

وذكر المسعودي[3] في معرض التحدث عن هذا المنافق أثناء توليته « من قبل عثمان » إمرة الكوفة :

أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل الى الصباح ، فلما أذن المؤذن للصلاة خرج منفصلا في غلائله ، فتقدم الى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعاً ، وقال : تريدون أن أزيدكم ؟ وقيل : إنه قال في سجوده وقد أطال : إشرب واسقني ؟ فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول :

والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً .

وخطب الناس الوليد : فحصبه الناس بحصباء المسجد ، فدخل قصره يترنح

---

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » المجلد الرابع ص ١٩٥ طبعة مصر .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٢ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

ويتمثل بأبيات تأبط شراً :

ولست بعيداً عن مدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي وأمشى الملا بالساحب المتسلسل[1]

وكان الوليد زانياً يشرب الخمر ، فشرب بالكوفة وقام ليصلى . . . فتقيأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته :

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا

فشخص أهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره وشهدوا عليه بشرب الخمر ، فأتى به ، فأمر رجلا من المسلمين أن يضربه الحد ، فلما دنا منه قال :

نشدتك الله وقرابتي . . . فتركه ، فخاف على أن يعطل الحد فقام إليه فحده بيده . . . فخرج رهط من أهل الكوفة الى عثمان في أمر الوليد ، فقال :

أكلما غضب رجل على أميره رماه بالباطل !! . . فاستجاروا بعائشة ، وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة .

فقال : أما يجد فساق العراق ومرَّاقها ملجأ إلا بيت عائشة !! فسمعت عائشة ، فرفعت نعل رسول الله وقالت : تركت سنة صاحب هذا النعل[2] ؟ » .

ويذكر بعض الرواة أن سبب إمارة الوليد بن عقبة الكوفة من قبل عثمان « أنه لم يكن يجلس مع عثمان على سريره إلا العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن حرب ، والحكم بن أبي العاص ، والوليد بن عقبة .

ولم يكن سريره يسع الا عثمان وواحداً منهم ، فأقبل الوليد يوماً فجلس فجاء الحكم بن ابي العاص ، فأومأ عثمان الى الوليد فرحل له عن مجلسه ، فلما قام الحكم قال الوليد :

---

(١) ويذكر المسعودي في « مروج الذهب ٢ / ٢٢٥ » أن أبا الوليد كان يهودياً .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ / ٢٢٤ .

لقد تلجلج في صدرى بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك على ابن عمك .

وكان الحكم عم عثمان ، والوليد أخاه لأمه ، فقال عثمان :

إن الحكم شيخ قريش ، فما البيتان ؟ قال الوليد :

رأيت لعم المرء زلفى قرابة ... دوين أخيه حادثاً لم يكن قدما
فأملت عمراً أن يشب[1] وخالداً ... لكي يدعواني يوم نائبة عما

فرق له عثمان ، وقال : قد وليتك الكوفة[2] » .

ذلك ما يتصل بالوليد بن عقبة ـ كيفية توليته إمارة الكوفة وموقفه من الرسول والإسلام في عهد النبي ، وعبثه بالشريعة السمحاء في تصرفاته التي وصفنا طرفاً منها ، حتى ليقال إن الوليد بن عقبة « . . . حين دخل الكوفة والياً عليها مكان سعد قال له سعد : أزائراً يا أبا وهب ؟ أم أميراً ؟

قال الوليد : بل أميراً يا أبا إسحاق ، قال سعد :

والله ما أدري ، أحمقت بعدك ، أم كسبت بعدى ؟؟ قال الوليد ما حمقت بعدى ، ولا كسبت بعدك ؟ وإنما ولى القوم الأمر فاستأثروا ، قال سعد : ما أراك إلا صادقاً[3] » .

أما ما يتصل بالولاة الآخرين فمعروف ـ نذكر منهم : عبد الله بن عامر الذي ولاه عثمان البصرة ، وكان شاباً حدثاً ، لم يتجاوز سنه الخامسة والعشرين بعد ، وإن في المهاجرين والانصار وغيرهم من العرب من هم أكبر منه سناً وأكثر تجربة واقدم منه سابقة في الدين[4] » .

أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه عثمان مصر فكان عثمان نفسه يعلم أن الله أنزل في دمه قرآناً . . . وأن النبي كان قد أهدر دمه يوم الفتح[5] » .

---

(١) يعني عمراً ، وخالداً ، ابني عثمان بن عفان .
(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٩٣ .
(٣) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٨٧ .
(٤) المصدر نفسه : عثمان بن عفان ص ١٨٨ .
(٥) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٣٣ .

تلك جوانب من تصرفات ولاة عثمان .

أما تصرفات عثمان نفسه تجاه بعض كبار الصحابة الذين أنكروا عليه بعض أعماله أو أعمال ولاته لعدم انسجامها مع مبادىء الدين الحنيف ، فهي الاخرى كانت على جانب كبير من الغلظة : فقد خالف عبد الله بن مسعود عثمان بن عفان رأيه في جمع القرآن ، فلم يعالجه عثمان بالإقناع أو يصرفه بالمعروف .

بل أمر به أن يؤدب لاجترائه . فضربه بعض عبيده وضربوا به الأرض إمعاناً منهم في الشدة عليه حتى كسروا أضلاعه . ثم لم تقر عين الخليفة حتى اتبع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه . » .

وراع أبا ذر إسراف عثمان وتبديده أموال السملمين على ذوي قرباه فأنكر ذلك عليه واستكثره واستشهد بآيات من القرآن .

« وقد شكا مروان بن الحكم الى عثمان مقالة أبي ذر هذه ، فأرسل عثمان إليه مولاه ينهاه . فقال أبو ذر : لئن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي من أن أرضي عثمان بسخط الله . فنفاه عثمان الى الربذة فمات هناك . »[1] .

وعندما بلغ عثمان موت أبي ذر بالربذة قال رحمه الله على ما يحدثنا البلاذري[2] فقال : عمار بن ياسر نعم . . فرحمه الله من كل أنفسنا . فقال له عثمان :

يا عاض أير أبيه أتراني ندمت على تسييره !

وأمر فدفع في قفاه وقال : إلحق بمكانه ، فلما تهيأ للخروج جاء بنو مخزوم الى علي فسألوه أن يكلم عثمان فيه .

فقال له علي : يا عثمان اتق الله فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فمات في تسييرك . ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره .

وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان لعلي : أنت أحق بالنفي منه .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٦٣ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٥٤ ، ٥٥ .

فقال علي : رم ذلك إن شئت .

واجتمع المهاجرون فقالوا :

إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته فإن هذا شيء لا يسوع . فكف عن عمار . » .

وتداول الزبير بن العوام الرأي كما ذكرنا ، مع نفر من الصحابة ، في سوء الأوضاع العامة فانتهى بهم الأسر الى كتاب رفعوه الى عثمان فحمله عمار بن ياسر إليه .

فلما دخل عمار على عثمان ومعه مروان ، قال مروان لعثمان :

إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس ، وإنك إن قتلته نكلت به مَنْ وراءهُ .

فما أسرع أن قره عثمان على رأيه العجيب البغيض .

وتناول عصاه فضرب بها الشاكي وأعانه على الضرب أهل بيته ، ومن حضر مجلسه من بني أمية . حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق في ذلك اليوم البارد الممطر[1] .

وفي ضوء ما ذكرناه نستطيع أن نقول ـ مع الدكتور طه حسين :

أن عثمان ـ مهما يكن اعتذار اهل السنة والمعتزلة عنه ـ فإنه قد أسرف وترك عماله يسرفون في العنف بالرعية ضرباً ونفياً وحبساً . وهو نفسه قد ضرب ـ أو أمر بضرب ـ رجلين من أعلام صحابة النبي .

ضرب عمار بن ياسر حتى أصابه الفتق ، وأمر من أخرج عبد الله بن مسعود من مسجد النبي إخراجاً عنيفاً حتى كسر بعض أضلاعه .

ومهما يكن من أمر هذين الرجلين الجليلين . . فما نعلم أنه حاكمهما وأقام عليهما الحجة وأباح لأحد منهما الدفاع عن النفس وإنما سمع فيهما قول عماله أو قول حاشيته . ثم عاقبهما دون أن يقيم البينة .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود ، الإمام علي بن أبي طالب ، ٢ / ٣٤ ، ٣٥ .

وليس له من هذا كله شيء . . وهو نفسه شق على أبي ذر حتى نفاه لا لشيء ، إلا لأنه أنكر سياسته العامة في الأموال . .

ثم هو أذن لعماله أن يخرجوا الناس من ديارهم كلما آنسوا منهم بعض ما يكرهون . فجعل عماله يتقاذفون فريقاً من أهل الكوفة يرسلهم سعيد الى معاوية ثم يردهم معاوية الى سعيد ، ثم يرسلهم سعيد الى عبد الرحمن بن خالد دون أن يحاكموا أو تقوم عليهم البينة ، ويسمع منهم دفاعهم عن أنفسهم[1] » .

وقد روى لنا البلاذري[2] قصة عزل عثمان عبد الله بن مسعود عن بيت المال في الكوفة وأسباب ذلك العزل ونتائجه . أما التعليق على ذلك فنتركه للقارىء :

« لما قدم الوليد بن عقبة والياً على الكوفة ألفى ابن مسعود على بيت المال . فاستقرضه مالا . . . فأقرضه . . ثم إنه اقتضاه إياه . فكتب الوليد في ذلك الى عثمان فكتب عثمان الى عبد الله بن مسعود : إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد في أخذ المال . فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال :

كنت أظن أني خازن للمسلمين . فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك .

وأقام بالكوفة بعد إلقائه مفاتيح بيت المال » . فكتب الوليد بذلك إلى عثمان « فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه وشيعه أهل الكوفة فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن . فقالوا له :

جزيت خيراً . فلقد علَّمت جاهلنا ، وثبَّت عالمنا ، وأقرأتنا القرآن وفقَّهتنا في الدين . . .

وقدم ابن مسعود المدينة المدينة وعثمان يخطب على منبر الرسول ، فلما رآه قال : إنه قدمت عليكم دويبة سوء . .

فقال ابن مسعود : لست كذلك ولكنني صاحب رسول الله :

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٥٤ ، ٥٥ .

ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً وضرب به عبد الله بن زمعة الأرض[1] .

فأقام عبد الله بن مسعود بالمدينة « لا يأذن له عثمان في الخروج منها إلى ناحية من النواحي . . . حتى توفي قبل مقتل عثمان بسنتين . . .

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه أتاه عثمان عائداً .

فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي .

قال فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفلا آمر لك بعطائك ؟ قال : منعتنيه وأنا محتاج إليه ، وتعطنيه وأنا مستغن عنه .

قال : يكون لولدك . قال : رزقهم على الله . فقال عثمان : استغفر الله لي يا أبا عبد الرحمن .

قال : أسأل أن يأخذ لي منك بحقي . وأوصي أن لا يصلى عليه عثمان »[2] .

لقد أنكر المسلمون على عثمان تصرفاته التي ذكرنا جانباً منها ، لخروجها على روح الإسلام ، وسنة الرسول و « سيرة الشيخين » .

كما أنكروا تصرفات أخرى كثيرة . . كان بعضها خروجاً سافراً على القرآن وسنة النبي .

وقد لخصها الدكتور طه حسين بقوله : « لقد أنكر خصوم عثمان عليه أنه لم يكن يبدأ خلافته حتى عطل حداً من حدود الله . وخالف نصاً من نصوص القرآن خلافاً خطيراً . وذلك حين عفا عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ولم يقتص منه الهرمزان وجفينة ، وبنت أبي لؤلؤة .

فقد كان الهرمزان أميراً فارساً مسلماً ـ وكان الآخران ذميين . والله قد عصم دماء المسلمين ودماء الذميين ـ وبين الحدود التي تقام حين يعتدى احد على بعض

---

(١) المصدر نفسه ٥ / ٣٦ .

(٢) البلاذري « أنساب الأشراف » ٥ / ٣٧ .

أولئك أو هؤلاء . . فقال المعارضون : إن إقامة الحد على عبيد الله واجبة بنص القرآن [1] .

وقال عثمان : قتل أبوه أمس وأقتله اليوم[2] والمهم هو أن عثمان عفا عن عبيد الله ثم عاب المسلمون المعاصرون لعثمان عليه بعد هذه القصة مخالفته للسنة المعروفة المستفيضة عن النبي وعن الشيخين وعن عثمان نفسه في صدر من خلافته ، وذلك حين أتم الصلاة في منى وقد قصرها النبي ، والشيخان وقصرها عثمان نفسه أعواماً . .

وقد ينبغي أن تعلم أن مصدر هذا الذي أصاب أصحاب النبي حين رأوا عثمان يتم الصلاة بمنى هو مخالفة السنة الموروثة أولا . وشيىء آخر عظيم الخطر جداً في نفوس المهاجرين ، وهو :

أن النبي بعد الهجرة قد اتخذ المدينة له ولأصحابه دار إقامة ، واتخذ مكة وما حولها دار غربة ، وكره لنفسه وأصحابه أن يصلوا الإقامة بمكة حتى لا يظن أنهم يرجعون أو يهمون بالرجوع إليها بعد أن هاجروا منها ، وكره أن يموت بعض أصحابه المهاجرين في مكة .

وأنكر خصوم عثمان عليه شيئاً آخر يتصل بركن آخر من اركان الدين . فقالوا :

إنه أخذ الزكاة على الخيل ، وكان النبي قد اعفى من زكاة الخيل وسار الشيخان سيرته .

وعاب المسلمون على عثمان أنه حمى الحمى ، والله ورسوله قد أباحا الماء والهواء والكلاء للناس جميعاً . .

وهناك اعتراض آخر وجهه خصوم عثمان إليه وهو أنه أخذ من أموال الصدقة

---

(١) البقرة والنساء والمائدة .

(٢) وليس في القرآن ما يشير إلى إستثناء الشخص الذي يقتل أبوه من التعرض لإقامة الحدود الدينية بسبب ذلك القتل . وجريرة عبيد الله أنه ـ بعد أن قتل أبو لؤلؤة أباه ـ تناول السيف فقتل أبا لؤلؤة ، كما قتل الهرمزان ، وجفينة ، وبنت أبي لؤلؤة دون أن يثبت اشتراكهم في القتل .
وكان الواجب على عبيد الله أن يتقدم بالشكوى الى الخليفة حسب الأصول المعروفة .

فأنفق منها في الحرب وفي غير الحرب من المرافق العامة .[1] .

قال المعترضون : إن الأموال الصدقة مصارف معينة بينها الله في قوله :

« إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[2] .

وعاب خصوم عثمان عليه : أنه حمل الناس على مصحف واحد . . فحرق ما عدا هذا المصحف من الصحف التي كتب فيها القرآن . . فليس على عثمان بأس في دينه من هذه الناحية . وقد يمكن أن تعترض عليه في أنه كلف كتابة المصحف نفراً قليلاً من أصحاب النبي وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه وعلموا الناس في الأمصار . . وهنا نفهم غضب ابن مسعود . فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن . . . أخذ من فم النبي سبعين سورة من القرآن ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد . فإيثار عثمان لزيد بن ثابت وأصحابه وتركه لابن مسعود وغيره من الذين سبقوا الى استماع القرآن عن النبي وحفظه عنه قد أثار عليه بعض الاعتراض . .

وربما تحرج المسلمون من تحريق ما حرق عثمان من الصحف .

وإذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل من جهة الدين ولا من جهة السياسة فقد يكون لنا أن نأسف لتحريق تلك الصحف ، لأنه إن لم يكن قد أضاع على الإسلام شيئاً من دينهم فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيراً من العلم بلغات العرب ولهجاتها على أن الأمر اعظم خطراً وأرفع شأناً من علم العلماء وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات . .

وأنكر المنكرون على عثمان خصلة اخرى ما نعرف أن العذر يمكن أن يقوم له فيها . ذلك أنه رد عمه الحكم بن ابي العاص وأهله الى المدينة وكان النبي صلّى الله عليه وآله وسلم قد أخرجهم منها إخراجاً عنيفاً .

---

(١) اعتراض غير وجيه لأن الإتفاق من الصدقات سواء كان في الحرب أو في غيره من المرافق العامة . « الناشر » .
(٢) التوبة : ٦٠ .

وكان بيت الحكم بن أبي العاص في الجاهلية مجاوراً لبيت النبي . فكان الحكم يؤذى جاره الكريم أشد الأذى وأقبحه . .

وقد أقبل الحكم بعد فتح مكة مسلماً ولكن إسلامه لم يكن إلا جنة يتقى بها الموت . وآية ذلك أنه استمر يؤذى النبي بقوله وفعله ، فكان يسعى وراءه ويغمزه ويقلد حركاته ساخراً منه . .

فقد كان أيسر الرعاية لحرمة النبي يقتضى ألا يرده عثمان الى المدينة ، ليساكن النبي فيها ميتاً بعد أن أبى النبي أن يساكنه فيها حياً .

وقد دلت سيرة عثمان مع الحكم وبنيه ـ بعد ذلك ـ على أنه إنما ردهم الى المدينة إيثاراً لهم بالخير وتكاثراً بهم على غيره من المسلمين واستعانة بهم على أمور السياسة .

وقد ولى عثمان الحارث بن الحكم شؤون المدينة فأسرف على الناس وعلى نفسه وسار سيرة لا تلائم الأمانة ، ولا التورع . . ثم لا يقف عثمان عند هذا الحد .

وانما اعطى الحارث مالا كثيراً .

ثم اختص عثمان بمروان بن الحكم فأعطاه ، وحباه ، واتخذه لنفسه وزيراً ومشيراً . . ولم يكن عثمان ليقف بأحداثه عند هذا الحد وإنما تجاوزه ، هو وعماله الى أشياء كثيرة تمس حقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم »[1] .

ومما زاد الوضع الحرج حراجة أن قسماً من أهل بيت عثمان ومن المقربين اليه وممن ساعد على جعله خليفة قد بدأ يؤلب الناس عليه .

« فهذا محمد بن أبي حذيفة . . آذاه ان يؤثر الخليفة عليه سواه من أهله . . فكان يلقى الرجل عائداً من غزوة الروم فيتخابث ويسأل :

أمن الجهاد ؟ فيجيبه الرجل بنعم ، فيشير بإبهامه الى ناحية الحجاز ويقول :

لقد تركنا خلفنا الجهاد . . جهاد عثمان . . حتى مضى وحقده رائده الى

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

مصر يلوذ بجماعات المخالفين[1] .

والى هذه الحادثة يشير البلاذري[2] بقوله :

« وكانت غزاة ذات الصواري في المحرم سنة ٣٤ وعليها عبد الله بن سعد ، فصلى بالناس ، فكبر ابن أبي حذيفة تكبيرة أفزعه بها . . وجعل ابن أبي حذيفة يقول :

يا أهل مصر إنا خلفنا الغزو وراءنا ـ يعني غزو عثمان .

وبعث عثمان الى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم ويحمل عليه كسوة . فأمر به فوضع في المسجد وقال : يا معشر المسلمين ألا ترون الى عثمان يخادعني عن ديني ويرشدني عليه فازداد أهل مصر عيباً لعثمان وطعناً عليه » .

وذاك عبد الرحمن بن عوف يقول للناس : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما وليت عثمان شسع نعلي .

وقال : وهو على فراش الموت : عاجلوه . . عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكة »[3] .

وذكر البلاذري[4] :

« حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال :

لما توفي أبو ذر بالربذة ، تذكر على وعبد الرحمن بن عوف فعل عثمان فقال علي :

هذا عملك .

فقال عبد الرحمن : إذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي . إنه قد خالف ما أعطاني .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٤٨ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٥٠ ، ٥١ .
(٣) عبد الفتاح عبد المقصود الإمام علي بن أبي طالب ٢ / ٤٧ .
(٤) أنساب الأشراف ٥ / ٧٤ .

وحدثني مصعب بن عبد الله الزبيري عن ابراهيم بن سعد عن أبيه أن عبد الرحمن أوصى أن لا يصلى عليه عثمان »[1] . وذلك عمرو بن العاص ، الذي وجِدَ على عثمان حين عزله عن مصر . .

فكان يؤلب الناس ويحرضهم عليه ما وسعه ذلك سراً . على أنه لم يتردد إذ قال لعثمان جهرة في المسجد : إنك ركبت بالناس أموراً ، وركبناها معك فتب الى الله فنَتُب . وتلقى عثمان ذلك أسوأ لقاء فلما اشتدت الفتنة ، وعرف عمرو أنها منتهية الى غايتها آثر أن يعتزلها في طورها ذاك . فخرج الى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها وجعل يتنسم الأخبار .

وكان عمرو وابناه على ما هم عليه بفلسطين حتى جاءهم النبأ بقتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبوك عبد الله ما حككت قرحة إلا أدميتها . يريد أنه مهد للفتنة والثورة لعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الأمر الى غايته »[2] .

ويحدثنا عمرو نفسه عن بعض ما فعله في التأليب على عثمان وهو في طريقه الى فلسطين فيقول : والله اني كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان ! »[3] وقد هدد عمرو بن العاص عثمان ، حين حضر الحصار الأول قائلا : إنك يا عثمان ركبت بالناس النهابير .

فاتق الله وتب اليه . فقال :

يا ابن النابغة وانك ممن يؤلب على الطغام لأني عزلتك عن مصر . فخرج الى فلسطين فأقام بها في ماله هناك ، وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم . فلما بلغه مقتله قال :

أنا أبو عبد الله ، إني إذا حككت قرحة نكأتها »[4] .

وتلك عائشة أم المؤمنين خرجت بقميص النبي ، فقالت للناس :

---

(١) فصلى عليه الزبير بن العوام على رواية ، وسعد بن أبي وقاص على أخرى ، وكان ذلك سنة ٣٢ هـ .
(٢) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) عباس محمود العقاد « عبقرية الإمام » ص ٨٣ .
(٤) البلاذري « أنساب الأشراف » ٥ / ٧٤ .

للناس « هذا قميص رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سُنّته . ثم تقول : اقتلوا نعثلا . قتل الله نعثلا »[1] .

ولقد كانت عائشة « أشد نساء النبي إنكاراً على عثمان . ولم تتحرج أن تصيح به من وراء سترها على المنبر حين عاب عبد الله بن مسعود فأسرف في عيبه .

ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان ، ومن سيرة عماله حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرِّضين على الثورة به[2] » .

وكانت عائشة تؤلب الناس على عثمان « وتدعو الى قتله بكل مكان . . ولم تبق بالمدينة لتكف عنه أذى الناس حين حصروه بداره . . وتمضي على الأثر الى مكة فلا يمنعها خروجها لأداء واجب ديني مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ ، وبث كراهيته في نفوس الحجيج القادمين من كافة الأقطار . .

ثم راحت ، وهي بموطن الإحرام لاتنى تستنبىء كل قادم ، وتتنسم أخبار المدينة بلهفة .

فلما ألقى إليها ذات يوم بنبأ مكذوب نمّ عن انتصار الشيخ على خصومه ، وقتله المصريين ، صاحت بغضب واستنكار :

أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ »[3] وكانت عائشة ، قبل خروجها الى ـ مكة ، كما ذكرنا ـ كثيرة النقد لعثمان . وقد أغلظت له ذات يوم على ما يحدثنا البلاذري[4] » وأغلظ لها . وقال :

وما أنت وهذا ؟ إنما أمرك الله أن تقري في بيتك . . فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله وثوباً من ثيابه ونعلا من نعاله . ثم قالت : ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم ! وهذا شعره ، وثوبه ، ونعله ، لم يبلى !! » .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤٥٨ .

(٢) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٢٩ .

(٣) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٢٧٦ ـ ٢٧٨ .

(٤) أنساب الأشراف / ٤٨ ، ٤٩ .

فنشأ عن ذلك كله تذمر عامر انتشر في أرجاء بلاد الإسلام وبخاصة في الحجاز ومصر والعراق . والغريب في الأمر هو : أن عثمان لم يصغ لنصح الناصحين من أعلام الصحابة . . بل استمر خاضعاً لتوجيهات مروان بن الحكم ، وتصرفات عماله وأمرائه الذين كانوا ـ في الواقع ـ مصدر القلق وموضع الشكوى في بلاد الإسلام .

ولما أخذ الأمر يتفاقم على عثمان ، وبدأ الميزان السياسي بالاختلال ، جمع عثمان ـ ٣٤ هـ على ما يقول الرواة ـ كبار امرائه :

معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن أبي سرح ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد ابن العاص ليستشيرهم فيما يجب عليه أن يتخذه من الإجراءات لتطليف حدة التوتر بينه وبين رعيته .

« فلما التأمت جماعتهم قال عثمان : إن لكل إمام وزراء ، وإنكم وزرائي . .

فأما معاوية فلم يزد على أن طلب اليه أن يرد العمال الى امصارهم . .

وأن يعتمد عليهم في أن يضبط كل واحد مصره ويحزم أمره . .

وأما سعيد بن العاص فأشار عليه أن يقتل قادة المعارضة وزعماء الفتنة .

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح : فأشار عليه أن يترضى الناس ويعطيهم من بيت المال ويأخذهم عن طريق أطماعهم .

وأما عبد الله بن عامر : فأشار عليه بأن يرسل الناس الى الجهاد ويشغلهم بالحرب ويطيل إقامتهم بالثغور »[1] .

ويلاحظ القارىء أن هذا المؤتمر ـ بالإضافة إلى أن أعضاءه هم مصدر الشكوى والتذمر ـ لم ينجح في الاتفاق على حل للمشكلة التي واجهها عثمان .

وسبب ذلك على ما يبدو هو : أن أعضاءه لم يتفهموا طبيعة المشكلة التي كانت تهدد خلافة عثمان وحياته على السواء .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وقد شغل أعضاؤه أنفسهم ـ كما رأينا ـ في ابتداع اساليب فاسدة جديدة لإلهاء الناس في أمور خارجية وصرفهم عن التحدث بمشكلات الساعة ـ أي أن المؤتمرين واجهوا المشكلة بالهروب عنها وعدم التعرض لها .

ومما يلفت النظر : أن عثمان نفسه لم يبد رأيه في المشكلة إطلاقاً ، ولم يتخذ أي إجراء ـ وقائي أو علاجي ـ لمواجهة الموقف المتأزم ، بله محاولة التغلب عليه .

وخطب عثمان في المتذمرين : ولكنه بدلا من أن يعالج الموقف المتأزم قد ساعد على جعله أكثر تأزماً وحراجة حين قال : « أما بعد : فإن لكل أمة آفة وإن لكل نعمة عاهة .

وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه الملة قوم عيابون طعانون . .

أما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد عبتم عليّ أشياء ونقمتم في أمور قد أقررتم لابن الخطاب بمثلها . ولكنه وقمكم وقماً . .

أما والله لأنا أكثر من أبن الخطاب عدداً » . .

فعثمان ، كما يبدو ، من خطابه هذا ، يشجب الذين انتقدوا سياسته ـ لعدم انسجامها مع القرآن والسنة وسيرة الشيخين ـ كما رأينا ـ ويصفهم بأنهم عيابون طعانون ، دون أن يشير الى الأمور التي يعيبونها عليه ويطعنون بها على سياسته العامة ، ودون أن يناقش تصرفاته ، وتصرفات عماله وذوي قرابته في ضوء الأحداث القائمة آنذاك .

وأنكى من ذلك أن عثمان حاول تبرير ما أخذه المسلمون عليه بقوله :

إن عمر بن الخطاب كان قد فعل مثله دون أن ينقم المسلمون عليه .

والأنكى من كل ذلك أنه ختم خطبته بالتهديد والوعيد .

وكان الأولى به أن يختمها بذكر وجوه الإصلاح الذي كان الناس يتوقون إليه ، والوعد بالابتعاد عما اعتبره المسلمون المعاصرون لعثمان خروجاً على الدين .

ومهما يكن من الأمر فقد ازداد التذمر ، وانتشر بين صفوف الجيش في

الثغور .

وعاد عبد الله بن سعد ظافراً بقهر اسطول الروم في موقعة ذات الصواري .

ولكنه عاد وقد أفسد عليه ـ ابن أبي حذيفة ـ جيشه بما أظهر من النكير عليه وعلى خليفته ، وبما كان يقوله للمحاربين :

إنكم تسعون الى الجهاد ـ والجهاد وراءكم في المدينة ـ حيث يقيم عثمان فيسوس الأمة على غير كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسياسة صاحبيه .

ويعزل أصحاب رسول الله من العمل ، ويولي أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب المجون .

انظروا إلى واليكم وقائدكم الى الجهاد إنه نزل القرآن بكفره وأهدر النبي دمه .

ولكن عثمان يوليه أمركم على ذلك لأنه أخوه في الرضاعة »[1]

وقد نتجت عن ذلك كله ـ بالإضافة الى ما ذكرنا ـ معارضة شعبية خفية تجري بها الألسنة ولا يعرف صاحبها . كالذي كان حين وسع عثمان مسجد النبي فقال الناس :

يوسع مسجد النبي ويترك سنته ، وكالذي كان حين كثر الحمام في المدينة وأقبل الشباب على الرمى فتقدم عثمان الى الناس في ذبح الحمام .

وولى رجلاً يمنع الرمى بالندق ، فقال الناس : يأمر بذبح الحمام ، ويؤوي طريد رسول الله !! يشيرون بذلك الى ايواء عثمان للحكم بن أبي العاص وبنيه »[2] .

قال البلاذري[3] « حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن عبد الله عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال : خطب عثمان فأمر بذبح الحمام . . فقال الناس : يأمر بذبح الحمام وقد آوى طرداءِ رسول الله » .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ص ١٢٨ .

(٢) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ١٦٨ .

(٣) « أنساب الأشراف » ٥ / ٢٧ .

والسؤال الذي لا بد من طرحه وتلمس الإجابة عليه هو :

« أين نشأت المعارضة لسياسة عثمان ؟ أنشأت في المدينة مستقر الخلافة ؟ أم نشأت في الأمصار ؟ وبعبارة أدق .

هل نشأت المعارضة بين أصحاب النبي من المهاجرين والانصار ثم انتقلت عنهم الى الجند المرابطين في الأمصار ؟

أم نشأت في الجند ثم انتقلت الى أصحاب النبي في المدينة ؟

وواضح جداً أن للإجابة على هذا السؤال خطراً وأي خطر .

فإن نشأة المعارضة في المدينة معناها : أن أصحاب النبي قد كانوا أول من أنكر على عثمان بعض سياسته فتبعهم الناس .

ونشأة المعارضة في الأمصار معناها : أن الجند هم الذين سبقوا الى الخلاف ثم أقحموا فيه وفي نتائجه أصحاب النبي . . ونرى أن المعارضة لم تنشأ في المدينة وحدها ، وإنما نشأت فيها وفي الأقاليم ، بل لعلها نشأت في المدينة ثم في أطراف الأقاليم »[1] .

ومن الأدلة على ذلك ما سلف أن ذكرناه من مواقف كبار الصحابة من تصرفات ابن عفان . فقد مر بنا ذكر جانب من موقف أبي ذر ، وعبد الله ابن مسعود ، وعمار بن ياسر .

وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة أخرى من هذا القبيل ، ويلوح للباحث أن النقمة على عثمان قد انتقلت ـ في عاصمة النبي ـ من طبقات كبار الصحابة الى من يأتون بعدهم مباشرة في المركز الإجتماعي والديني .

وموقف جبلة بن عمرو الساعدي وأمثاله معروف لدى الكثيرين .

وقد ذكر البلاذري[2] موقف جبلة هذا حين قال : « مر عثمان بن عفان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو على باب داره وقد أنكر الناس عليه ما أنكروه .

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، عثمان بن عفان » ١٣٦ .
(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٤٧ .

فقال : يا نعثل والله لأقتلك ولأحملنك على قلوص جرباء . . أطعمت الحارث ابن الحكم السوق وفعلت ما فعلت !!

وكان عثمان ولي الحارث بن الحكم السوق . فكان يشتري الحليب بحكمه ويبيعه بسومه ويجبى مقاعد المتسوقين ، ويصنع صنيعاً منكراً .

فكلم في إخراج السوق من يده فلم يفعل . وقيل لجبلة في أمر عثمان وسئل الكف عنه فقال : والله لا ألقى الله غداً فأقول : ﴿ **إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا**﴾[1] .

وقد دفع ذلك الامتعاض والاضطراب الذي حدث في بعض الأقاليم الإسلامية أصحاب الرأي فيها الى أن يرسلوا بعض وجوههم وفوداً الى عاصمة الخلافة لمقابلة عثمان والتداول معه في الأمر لإيجاد مخرج من هذه الأزمة الحادة والفتنة الغليظة المظلمة .

غير أن تصرفات مروان بن الحكم ـ وزير الخليفة وموضع سره ومصدر توجيهه ـ قد أفسدت الأمر . ومع ذلك فقد رجعت الوفود الى أمصارها يحدوها اليأس الذي لا يخلو من أمل في الإصلاح ، وتساورها الرهبة من البطش ممزوجة بالرغبة في التريث وانتظار مجريات الأمور .

ولكن مؤامرات مروان لم تقف عند حد فاختلق على لسان الخليفة كتابه المعروف للإيقاع بأهل مصر .

واطلع هؤلاء على المؤامرة قبل أن تطأ أقدامهم أرض الكنانة فانقلبوا راجعين . . فثار الناس على عثمان فقتلوه . .[2]

* * *

---

(١) الأحزاب : ٦٧ .

(٢) يجد القارىء نص الكتاب وملابسات القضية موجودة في أمهات كتب التاريخ ، وقد وجدنا تلخيصاً جميلاً لذلك كله في « الإصابة في تمييز الصحابة » ٢ / ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، لابن حجر العسقلاني ، وفي كتاب « الوزراء والكتاب » للجهشياري ص ٢٢ ـ ٣٠ مطبعة مصطفى محمد ، الطبعة الأولى بمصر عام ١٩٣٨ م ، قال الجهشياري : « لما صار المصريون بأيلة راجعين عن عثمان مر بهم راكب أنكروا شأنه فأخذوه ، فإذا هو غلام لعثمان على جمل له معروف ، وكان عثمان يحج عليه ، ففتشوه فوجدوا معه قصبة من رصاص فيها صحيفة =

لقد مر بنا التحدث عن مقتل عثمان ، ويجمل بنا ـ قبل أن نتطرق الى ذكر انتقال الخلافة الى علي بن أبي طالب ـ أن ننبه القارىء الى أن مروان بن الحكم ، ومعاوية بن أبي سفيان قد بدءا ـ منذ أن سمعا بمقتل عثمان ، وبيعة المسلمين لعلي ـ بالتهيؤ للخروج على إمام زمانهما متذرعين بالمطالبة بدم الخليفة القتيل .

وكانت باكورة أعمالهما إرسال جملة كتب الى من آنسا فيهم القدرة على مشاركتهما أساليبهما وأهدافهما تمهيداً للقيام بعصيان مسلح ضد الخليفة الجديد .

وإلى القارىء نبذاً من تلك الرسائل :

كتب مروان الى معاوية . . « إني كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان . بعد أن وثبوا عليه وسفكوا دمه وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءها منكفئين قبل ابن أبي طالب انكفاء الجراد أبصر المرعى .

فأخلق ببني أمية أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيوق فإن لم يثأره ثائر فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنه » .

فلما ورد الكتاب على معاوية أمر بجمع الناس ثم خطبهم خطبة أبكى منها العيون وقلقل القلوب حتى علت الرنة وارتفع الضجيج وهمّ النساء أن يتسلحن .

ثم كتب الى طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله ابن عامر ، والوليد بن عقبة ، ويعلى بن أمية . فكان كتاب طلحة :

» أما بعد فإنك أقل قريش في قريش وتراً مع صباح وجهك ، وسماحة كفك ، وفصاحة لسانك ، فأنت بإزاء من تقدمك في السابقة ، وخامس المبشرين بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه ، وفضله ، فسارع إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعفك التخلف عنه ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به . فقد أحكمت لك الأمر من قبلي ، والزبير غير متقدم عليك بفضل . وأيكما قدم صاحبه فالمقدم

= عليها خاتم عثمان ، ففتحوا الصحيفة فإذا فيها كتاب من عثمان الى عبد الله بن سعد عامله على مصر فيه : إذا قدم عليك فلان وفلان ، وفلان وفلان فاضرب أعناقهم ، وفلان وفلان فاقطع أيديهم وأرجلهم . . . فكروا راجعين . . . فأقرءوا الكتاب أصحاب النبي ، فعاتب قوم عثمان على ذلك ، فقال : أما الخط فخط كاتبي مروان ، وأما الخاتم فخاتمي ، والله ما أمرت بذلك . . . فقال القوم : إن كنت كاذباً فلا إمامة لك ، وإن كنت صادقاً فليس يجوز أن يكون إماماً من كان بهذه المنزلة من الغفلة » .

الإمام وأمر من بعده للمقدم له » .

وكتب الى الزبير : أما بعد فإنك الزبير ابن عمة رسول الله وحواريه وسلفه وصهر ابي بكر وفارس المسلمين .

إعلم أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعي . فسارع الى حقن الدماء .

فقد أحكمت لك الأمر من قبلى ولصاحبك ، على أن الأمر للمتقدم ثم لصاحبه من بعده . .

ثم كتب معاوية الى مروان بن الحكم : أما بعد . . فقد وصل إلى كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين . . فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد الا غيلة ولا يتشازر إلا عن حيلة ، وكالثعلب لا يفلت الا روغاناً .

واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف . وامتهن نفسك امتهان من ييأس القوم من نصره وانتصاره . . . وانفل الحجاز فإني منفل الشام . .

وكتب الى سعيد بن العاص . . يا بني أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة فينكركم من كان بكم عارفاً ويصد عنكم من كان لكم واصلا ، متفرقين في الشعاب تتمنون لمظة المعاش . إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم وقتل في سبيلكم . ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه ؟!

وأنتم بنو أبيه ذوو رحمة وأقربوه وطلاب ثأره اصبحتم مستمسكين بشظف معاش زهيد عما قليل ينزع منكم عند التخاذل . . وكتب الى عبد الله بن عامر . .

كأني بكم يا بني أمية شعار يرك كالأوراك تقودها الحدأة . . فثب الآن قبل أن يستشرى الفساد . .

واجعل اكبر عدتك الحذر ، وأحدّ سلاحك التحريض ، واغضض عن العوراء وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشوس ، وقوِّ عزم المريد . .

وكتب الى الوليد بن عقبة . . فلو قد استتب هذا الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام يفزع من ظل الطائر . وعن قليل تشرب الرنق وتستشعر الخوف .

وكتب الى يعلى بن أمية . . فكان أعظم ما نقموا على عثمان وعابوه عليه ولايتك على اليمن وطول مدتك عليها . . حتى ذبحوه ذبح النطيحة . . وهو صائم معانق المصحف . . على غير جرم . . وأنت تعلم أن بيعته في أعناقنا وطلب ثاره لازم لنا . . فشمر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتك أهلها ، وأحكمت أمرها .

وقد كتبت الى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة والطلب بدم عثمان المظلوم .

وكتبت الى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق . .

واعلم يا ابن امية أن القوم قاصدوك بادىء بدء لاستنزاف ما حوته يداك من المال .

وكتب اليه مروان جواباً على كتابه . . زعيم العشيرة وحامي الذمار . . أنا على صحة نيتي ، وقوة عزيمتي ، وتحريك الرحم لي ، وغليان الدم مني غير سابقك يقول ولا متقدمك بفعل .

وأنت ابن حرب طلاب التراث وأبى الضيم . وكتابي اليك .

وأنا كحرباء السبسب الهجير يرقب عين الغزالة ، وكالسبع المفلت من الشرك يفرق من صوت نفسه .

منتظراً لما تصح به عزيمتك ، ويرد به أمرك فيكون العمل به والمحتذى عليه . .

وكتب اليه عبد الله بن عامر . . فإن امير المؤمنين كان الجناح الحاضنة تأوى اليها فراخها . فلما أقصده للسهم صرنا كالنعام الشارد . . والذي أخبرك به أن الناس في هذا الأمر تسعة لك وواحد عليك .

ووالله للموت في طلب العز أحسن من الحياة في الذلة . وأنت ابن حرب فتى

الحروب ، ونصار بني عبد شمس ، والهمم بك منوطة وأنت منهضها . . ولنعم مؤدب العشيرة أنت ، وإنا لنرجوك بعد عثمان .

وها أنا أتوقع ما يكون منك لأمتثله وأعمل عليه .

وكتب الوليد بن عقبة . . فإنك أسد قريش عقلا ، وأحسنهم فهما وأصوبهم رأياً . معك حسن السيرة وأنت موضع الرئاسة ، تورد بمعرفة وتصدر عن منهل .

وأما اللين فهيهات . . والعار منقصة ، والضعف ذل . . قد عقلت نفسي على الموت عقل البعير ، واحتسبت أني ثاني عثمان أو أقتل قاتله .

فعملي على ما يكون من رأيك فإنا منوطون بك متبعون عقبك . . .

وكتب اليه يعلى بن أمية : إنا وأنتم يا بني أمية كالحجر ؛ لا يبنى بغير مدر ، وكالسيف لا يقطع ؛ إلا بضاربه . . . ثكلتني من أنا ابنها إن تمت عن طلب وتر عثمان . .

أرى العيش بعد قتل عثمان مراً . .

أما سعيد بن العاص فإنه كتب بخلاف ما كتب هؤلاء »[1] .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٥٨٠ / ٥٨٣ .

الفصل الثالث

خلافة الإمام

« لقد كان عليّ موفقاً كل التوفيق ، ناصحاً للإسلام كل النصح . .

صبر نفسه على ما كانت تكره .

وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقاً . .

بايع على ثان الخلفاء كما بايع أولهم كراهية للفتنة . . ونصحاً للمسلمين .

ولم يظهر مطالبته بما كان يراه حقاً له . ونصح لعمر كما نصح لأبي بكر . .

وقد بايع عثمان كما بايع الشيخين . وهو يرى أنه مغلوب على حقه . ولكنه على ذلك لم يتردد في البيعة ، ولم يقصر في النصح للخليفة الثالث ، كما لم يقصر في النصح للشيخين من قبله . . فكان طبيعياً إذن حين قتل عثمان أن يفكر علي في نفسه ، وفيم غلب عليه من حقه .

ولكنه مع ذلك لم يطلب الخلافة ، ولم ينصب نفسه للبيعة إلا حين استكره على ؟لك استكراهاً .

وحين هدده بعض الذين ثاروا بعثمان بأن يبدوا به فيلحقوه بصاحبه المقتول »[1] .

أما كيفية مبايعة المسلمين لعلي بالخلافة فيصفها الطبري[2] بقوله :

« حين قتل عثمان واجتمع المهاجرون والأنصار ومنهم طلحة والزبير ، فأتوا

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٢٠ ـ ٢٢ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٥ / ١٥٢ ، ١٥٣ .

علياً وقالوا : يا ابا الحسن هل نبايعك ؟ فقال : لا حاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم فقد رضيت به . .

فقالوا : ما نختار غيرك . . فاختلفوا اليه بعد ما قتل عثمان مراراً . .

وخرج علي إلى السوق في يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة فاتبعه الناس وبشوا في وجهه . فدخل حائط بني عمرو بن مبذول وقال لأبي عمرة ابن عمر بن محصن : أغلق الباب . فجاء الناس فقرعوا فدخلوا وفيهم طلحة والزبير فقالا : يا علي ابسط يدك فبايعه طلحة والزبير .

فنظر حبيب بن ذئيب الى طلحة حين بايعه فقال : أول من بدأ بالبيعة يد شلاء » .

وقد أوجز الإمام سياسته العامة في أول خطبة خطبها حين استخلف فقال :

« إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر . فخذوا الخير ودعوا الشر . والفرائض أدوها . . إتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده . .

وإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم »[1] .

كلمات قصار ولكنها تتضمن إجراء تغيير واسع المدى ، وعميق الغور في علاقات المسلمين ببعضهم وبالخليفة .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن الإمام ـ كما يحدثنا مؤرخوه ـ قد اعتذر مراراً عن قبول الخلافة على الرغم من إلحاح المسلمين عليه .

وقد مر بنا طرف من ذلك .

ولقد اشار الإمام نفسه الى ذلك في مواطن شتى من « نهج البلاغة » قال يصف تزاحم المسلمين عليه وإلحاحهم الشديد على مبايعته :

« دعوني والتمسوا غيري . فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ١٥٧ طبعة مصر الأولى .

واعلموا اني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل ، وعتب العاتب »[1] . فلما أصر القوم على مبايعته ، ورأى أن واجبه الديني يدعوه الى تلبية الدعوة كشف لهم عن حقيقة نفسه ـ فراعهم وألب الكثيرين منهم عليه ـ حين قال : « ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم . إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات أحجزته التقوى عن تقحم الشبهات » .

ألا وإن بليتكم قد عادت لهيئتها يوم بعث الله نبيكم . .

والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة . . ولتسلطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سباقون كانوا قصروا ، وليقصرن قاصرون كانوا سبقوا »[2] .

فالإمام إذن يرى أنهم سوف يضيقون به ذرعاً لعدالته وشدته في التزام الحق فيعصون أمره ، ولا يستطيعون أن يثنوه عن خطته .

ثم يصف الإمام : « في خطبة اخرى » إقبال المسلمين على مبايعته فيقول :

« ويسطتم يدي فكففتها . ومددتموها فقبضتها . ثم تداككتم عليّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها ، حتى انقطع النعل وسقط الرداء ووطىء الضعيف »[3] .

وأشار الإمام « في خطبة اخرى » الى المعنى نفسه حين قال : « فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون إليّ من كل جانب .

ـ ولقد وطىء الحسنان وشق عطفاي ـ مجتمعين حولي كربيضة الغنم .

فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون »[4] .

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ١٧٠ .

(٢) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ١ / ٩٠ الطبعة الأولى بمصر .

(٣) المصدر نفسه ٣ / ١٨١ التداك : الازدحام . الهيم : العطاش .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٥٠ ـ ٦٧ لقد مر بنا شرح كلامه في فصل سابق .

القسم الثاني

قميص عثمان

١ ـ الفصل الرابع : الناكثون ـ أصحاب الجمل ـ ٣٦ هـ

٢ ـ الفصل الخامس : القاسطون ـ أصحاب صفين ـ ٣٧ هـ

٣ ـ الفصل السادس : التحكيم ، المارقون ، ومصرع الإمام ٣٨ ـ ٤٠ هـ

الفصل الرابع

الناكثون

اشترك طلحة ، والزبير ، وعائشة في تأليب المسلمين على عثمان ، كما ساهم كل منهم بقلبه ولسانه في قتل الخليفة على الشكل الذي وصفناه .

وكان أشد الثلاثة وطأة على عثمان الزبير بن العوام ، وأخفهم طلحة بن عبيد الله . هذا مع العلم بأن عثمان كان يقول عن طلحة ـ وهو أخفهم وطأة عليه كما ذكرنا :

« ويلي من طلحة ! أعطيته كذا ذهباً وهو يروم دمي . . . اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه »[1] .

ويلوح الباحث أن طلحة قد تظاهر بالمطالبة بدم عثمان ـ في أوائل خلافة الإمام ـ وهو أدرى من غيره بقتله الرجل وبالدور الذي لعبه هو ـ والزبير وعائشة ـ في هذا الشأن ليغالط الناس ويوهمهم « أنه بريء من دمه . فلقد قال علي لطلحة وعثمان محصور :

أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان ؟ قال طلحة :

لا والله حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسها .

ويروى الطبري : أن عثمان كان له على طلحة خمسون ألفاً . فخرج عثمان يوماً الى المسجد فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فأقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك .

قال : فكان عثمان يقول وهو محصور : جزاء سنمار .

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى : علي وبنوه » ص ٨ .

وروي المدائن في كتاب « مقتل عثمان » : أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام . وأن حكيم بن حزام . . . وجبير بن مطعم . استنجدوا بعليٍّ على دفنه ، فأقعد طلحة لهما في الطريق ناساً بالحجارة »[1] . ولم يكن طلحة على ما يقول الدكتور طه حسين : « ليخفى ميله مع الثائرين ولا تحريضه لهم ولا إطماع فريق منهم في نفسه . وكثيراً ما شكا منه عثمان في السر والجهر .

والرواة يتحدثون بأنه استعان عليه بعلي نفسه ، وبأن علياً استجاب له فذهب الى طلحة ورأى عنده جماعة ضخمة من الثائرين . وحاول أن يرده عن خطته تلك فلم يستجب له طلحة »[2] .

وأما عائشة فقد مر بنا ذكر موقفها من عثمان ، فقد خرجت مراراً ـ كما ذكرنا ـ بقميص النبي مؤلبة على عثمان وقائله .

اقتلوا نعثلا . وكثيراً ما كانت تصيح به ـ من وراء سترها ـ وهو على المنبر ؛ كما ذكرنا ، نلومه على بعض فعاله .

فقد كانت عائشة ـ والحق يقال ـ من أعظم المؤلبين على الخليفة الثالث والمخذلين عن نصرته حتى انه حين بلغها ـ وهي في بيت الله الحرام :

أن عثمان قد انتصر على اعدائه صرخت بأعلى صوتها .

أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الباطل .

وقد سأل سعيد بن العاص أم المؤمنين ، قبل سفرها الى البصرة .

« أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ فقالت : أريد البصرة . وماذا تصنعين ؟

أطلب بدم عثمان . فأجابها سعيد : إن قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين »[3] .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول : إن أبطال حركة الجمل كانوا قادة الثورة

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٥٠٥ ، ٥٠٦ الطبعة الأولى بمصر .
(٢) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٨ .
(٣) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٣ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

على عثمان ورؤوس الفتنة التي انتهت بمصرع ثالث الخلفاء الراشدين .

وقد كان هؤلاء ـ دون شك ـ عارفين حق المعرفة ـ كغيرهم من المسلمين آنذاك ـ من هم قتلة عثمان ؟

ترى لماذا ألبوا الناس على عليّ ؟!

وهل هناك عوامل خفية ـ قريبة وبعيدة ـ ساقتهم الى القيام بعصيانهم المسلح ضد النظام القائم متخذين من قميص عثمان ذريعة لذلك ؟

ولماذا بايع طلحة ، والزبير علياً بالخلافة ؟

هل المطالبة بدم عثمان ـ إن صحت ـ تستلزم الثورة على النظام القائم أم تتم على أساس تقديم شكوى ، من قبل أولياء عثمان الذين عينهم القرآن بصراحة في سورة الإسراء[1] ـ الى الحكومة لتجرى التحقيق في ذلك وتتخذ الإجراءات القانونية بحق الذين تثبت إدانتهم ؟

وما حق عائشة وطلحة والزبير ـ من الناحية الشرعية ـ بالمطالبة بدم عثمان ؟ إن ولى عثمان هو ابنه عمرو ؟!

وما شأن البصرة والثورة على عثمان ؟

لماذا لم يتجهوا الى مصر المؤلبة ؟ وبقدر ما يتعلق الأمر بالسيدة عائشة نستطيع أن نقول : أن جفاء حصل بين عائشة وعلي ـ منذ عهد الرسول أيام غزوة بني المصطلق التي سنذكرها . .

وهناك عامل آخر أشار اليه بعض الباحثين المحدثين[2] ملخصه :

إن السيدة عائشة وجدَت على الإمام ـ من الناحية النفسية ـ فحسدته لعقمها ، ولأن عقب الرسول قد انحصروا في بنيه من فاطمة زوج علي ، ولكي نعرض على القارىء عوامل الجفاء بين السيدة عائشة وعلي بن أبي طالب نرى لزاماً علينا أن نترك السيدة عائشة نفسها تقص على القارىء ملابسات الموضوع .

---

(١) ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً لقد جعلنا لوليه سلطاناً لا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ الإسراء : ٣٣ ، بغض النظر عن شرعية القتل أو عدمها .

(٢) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى » وعبد الفتاح عبد المقصود : « الإمام علي بن أبي طالب » .

قالت السيدة عائشة[1] « كان رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأبتهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بني المصطلق (٦ هـ) أقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن . فخرج بي رسول الله . . فلما انتهى من سفره ذلك وجه قافلا حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل .

فلما ارتحل الناس خرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي . . فلما فرغت انسل عقدي ولا أدري .

فلما رجعت الى الرحيل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده .

وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت . . الى المكان الذي ذهبت اليه ، فالتمسته حتى وجدته . . ورجعت الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب ؛ قد انطلق الناس . فتلفلفت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني ، فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان إبن المعطل السلمي ـ وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس في المعسكر ـ فلما رأى سوادي أقبل حتى وقف علي فعرفني . . ثم قرب البعير فقال : اركبي . . فركبت .

فانطلق سريعاً يطلب الناس . . ثم قدمنا المدينة فلم أمكث أن أشتكيت شكوى شديدة . . وقد انتهى الحديث الى رسول الله والى أبوي .

فتنكرت من رسول الله بعض لطفه بي . حتى وجدت في نفسي مما رأيت من جفائه عني . فقلت :

يا رسول الله لو أذنت لي فانتقلت الى أمي فمرضتني ، قال :

لا عليك ، فانتقلت الى أمي .

وجاء رسول الله فدخل علي : ودعا علي بن أبي طالب .

فقال علي : يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ؛ وسل الجارية فإنها تصدقك .

---

(١) الطبري « تاريخ الأمم والملوك » ٣ / ٧٦ ـ ٧٠ .

فدعا رسول الله بربرة يسألها . . فقام إليها فضربها ضرباً شديداً وهو يقول :

أصدقي رسول الله . . . فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما يتغشاه . فسجى بثوبه ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه . . ثم جلس فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول : أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك .

ثم أمر بمسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بن جحش ـ وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ـ فضربوا حدّهم » .

يتضح ـ من رواية السيدة عائشة ـ انها خرجت مع النبي في مسيرة مع جيشه الى بني المصطلق ، وأنها أثناء رجوع القوم الى المدينة ـ شذّت عن الركب لبعض حاجتها ـ دون أن يعلم بها أحد من الناس ، ثم عادت الى الركب . ولكنها تفقدت عقدها ـ أثناء عودتها ـ فلم تجده في جيدها . فعادت الى المكان الذي جاءت من عنده ـ دون أن يراها أحد من الناس فعثرت على العقد . ثم عادت الى الركب فلم تجده . فمكثت في مكانها ـ بعد أن سار الركب دون أن يتفقدها أحد .

فمر بها صفوان ـ الذي هو الآخر ـ كما تحدثنا السيدة عائشة نفسها ـ قد شذ عن الركب لبعض حاجته ، وقد مر صفوان ـ على رسله ـ صدفة بالمكان الذي كانت السيدة عائشة جاثمة فيه . فأركبها على ناقته واتجه بها نحو المدينة كي يلحق بالركب .

وقد ارتاب بعض القوم ، بما فيهم حسان بن ثابت في موضوع عائشة وصفوان فرموهما بالفاحشة . . . وأشار عليٌّ علي النبي ـ عندما استشاره بأمرها في حضورها ـ أن يطلقها .

ومن الجدير بالذكر ـ في هذه المناسبة ـ أن البخاري في صحيحه قد نقل رواية السيدة عائشة مفصلة . والى القارىء رواية البخاري[1] .

« قالت عائشة : كان رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . قالت عائشة :

---

(١) صحيح البخاري ٣ / ١٥٤ ، ١٥٦ و ٥ / ٥٥ ، ٥٦ .

فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي . فخرجت مع رسول الله . . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله من غزوته تلك ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل . فقمت ـ حين آذنوا بالرحيل ـ فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جَزع ظَفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه . قالت :

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه .

وكان النساء آنذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكل الملعقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه .

وكنت جارية حديثة السن . . ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش .

فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب . فتيممت منزلي الذي كنت به . فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش . فأصبح عند منزلي . فرأى سواد إنسان نائم فعرفني ، وكان رآني قبل نزول آية الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه . . وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها .

فقمت إليها فركبتها . فانطلق يقودها » . أي ان السيدة عائشة ـ حسب رواية البخاري ـ شذت عن الجيش لبعض شأنها في اللحظة التي آذنوا بالرحيل ليلا ، دون أن تخبر أحداً منهم بذلك أو تطلب منهم انتظارها . وأن الأشخاص الموكلين بحمل هودجها لم يشعروا بخلوه منها لأن النساء آنذاك ـ جميعهن لا السيدة عائشة وحدها ـ كن نحيفات الأجسام لقلة ما يتناولنه من الطعام .

ولأن السيدة عائشة بالذات كانت صغيرة السن ، بالإضافة الى خفة وزن جسمها فلم يستنكروا خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وهو خلو منها . . ثم إنها نامت بعد أن يئست من القوم ، وكان صفوان من وراء الجيش ، فأدركها نائمة فعرفها ـ وهو سائر في الصحراء ليلا ـ لأنه كان قد رآها قبل الحجاب ، أي حينما كانت سافرة قبل أن يأمرها الله بالتحجب من الرجال ، فحملهاصفوانعلى بعيره

وأوصلها الى مكان أمنها .

ذلك ما يتصل ببعض عوامل الجفوة بين أم المؤمنين وعلي بن أبي طالب .

وهناك عوامل اخرى ، غير مباشرة ، تتعلق بالجفاء الذي كان بين السيدة فاطمة « بنت النبي من خديجة » وبين السيدة أم المؤمنين بنت أبي بكر .

فقد كانت السيدة عائشة تريد الاتستئثار بحب النبي وتحويل ما تبقى من ذلك الحب الى أبيها بدلا من علي زوج فاطمة . ويذكر بعض الرواة[1] : أن للسيدة عائشة ـ والسيدة حفصة بنت عمر زوج النبي ـ ضلعاً في تأخير جيش اسامة في عهد الرسول .

هذا بالإضافة الى العامل النفسي المتصل بحرمان السيدة عائشة من النسل كما أشار الى ذلك الدكتور طه حسين ، والاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود .

أما ما يتصل بموقف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله تجاه إمام زمانهما فيمكننا أن نكشف عوامله القريبة والبعيدة بسهولة ويسر .

فقد كان كل من طلحة والزبير راغباً في الخلافة منذ زمن ليس بالقصير وقد مر بنا ترشيح عمر لهما في رهط الشورى . فلما أنتقلت الخلافة الى عثمان حاول الرجلان ـ في صدر خلافته ـ أن ينتفعا به الى أقصى حدود الانتفاع .

وعندما رأى الرجلان تأزم الأحوال العامة على الخليفة ساهما في ذلك الى حد كبير على الشكل الذي وصفناه ظناً منهما أن الأمر ـ بعد اندحار عثمان ـ سوف ـ لا ينتقل لعلي ـ غير أن انتقال الخلافة للإمام قد راعهما . فبايعاه على مضض . ثم سألاه عن ولايتي الكوفة والبصرة فلم يجبهما .

يضاف إلى ذلك أن موقف الإمام الشديد في تطبيق مبادىء الدين كان هو الآخر من أقوى عوامل انتقاض الرجلين على الخليفة . فلكل منهما مصالح مركزة في جسم الدولة .

ويلوح للباحث أن طلحة والزبير كانا قد اعتادا على الاستئثار ببعض الموارد

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » .

العامة بعد وفاة الرسول .

وقد مرّ بنا ذكر بعض ما وصلهما به عثمان .

أما ما حصلا عليه في عهد الشيخين فنذكر منه المثالين التاليين :

قال البلاذري[1] : « حدثني الحسين بن علي بن الأسود العجلي قال : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابو معاوية عن هشام بن عروة عن عروة قال : أقطع ابو بكر : الزبير ، بين الجرف الى قناة . وأخبرني المدائن قال :

قناة واد يأتي من الطائف ويصب الى الأرحضية وقرقرة الكدر ثم يأتي سد معاوية ثم يمر على طرف القدوم ويصب في أصل قيدر الشهداء بأحد .

وحدثني الحسين بن علي بن الأسود العجلي قال : حدثنا حفص بن عتاب عن هشام بن عروة قال : خرج عمر يقطع الناس ، وخرج معه الزبير ، فجعل عمر يقطع حتى مر بالعقيق . فقال اين المستقطعون ؟ . . ما مررت بقطعة أجود منها .

فقال الزبير : أقطعنيها . فاقطعه إياها » .

فلا عجب أن رأى الزبير وطلحة في قميص عثمان ضالتهما المنشودة للانقضاض على الإمام .

وقد روى أحد المؤرخين[2] ملابسات الموقف بين علي من جهة وطلحة والزبير من جهة اخرى حين قال : « أرسل طلحة والزبير الى علي ـ قبل خروجهما الى مكة ـ محمد بن طلحة يقولان : إننا أصلحنا لك الأمر ووطدنا لك الإمرة ، وأجلبنا على عثمان حتى قتل . فلما طلبك الناس لأمرهم جئنا وأسرعنا إليك وبايعناك وقدنا إليك أعناق العرب ، ووطىء المهاجرون والأنصار اعقابنا في بيعتك . حتى إذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا ورفضتنا رفض التريكة وأذللتنا ذل الإماء .

فلما جاء محمد بن طلحة أبلغه ذلكَ . فقال : أذهب إليهما فقل لهما : فما الذي يرضيكما ، فذهب وجاء فقال : إنهما يقولان : ول أحدنا البصرة ، والآخر

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٦ .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٣ / ٤ ـ ٩ الطبعة الأولى .

الكوفة . فقال :

لها الله !! إذن يحكم الأديم ويستشرى الفساد ، وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها .

والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقين ! . فاستأذناه في الخروج الى مكة للعمرة ، فأذن لهما بعد أن أحلفهما ألا ينقضا بيعته ولا يغدرا به ، ولا يشقا عصا المسلمين ولا بوقعا الفرقة بينهم ، وأن يعودا بعد العمرة الى بيوتهما فحلفا على ذلك كله . ثم خرجا ففعلا ما فعلا .

وكان الإمام قد خاطبهما ـ قبل خروجهما الى مكة ـ فقال :

ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق حتى دفعتكما عنه ؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به ؟ أم أي حق رفعه إلي أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه ؟ والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ، ولا في الولاية إربة . ولكنكم دعوتموني وحملتموني عليها . فلما أفضت الي نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي فاقتديته .

فلم احتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما .

ولو وقع حكم جهلته فأستشيركما » .

وقد وصف الإمام فتنة طلحة والزبير وأعوانهما بقوله :

« والله ما أنكروا عليَّ منكراً ، ولا جعلوا بيني وبينه نصفا ، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه . . . ودماً هم سفكوه »[1] .

* * *

خرج الزبير وطلحة وعائشة يريدون البصرة مدعين بأنهم يطالبون بدم عثمان . وقد ارتكبوا ـ بعملهم هذا . كما سلف أن ذكرنا جملة أخطاء من الناحية الدينية والزمنية ، فليس من حقهم أن يطالبوا بدم عثمان لأنهم ليسوا اولياءه الذين أجازت لهم الشريعة الإسلامية أن يطالبوا بذلك .

---

(١) ابن أبي الحديد : « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٣ ، ٤ ـ ٤٠٥ .

إن وليه ـ كما ذكرنا ـ ابنه عمرو . وأنهم اتبعوا اسلوباً فظاً للتوصل الى ما زعموا أنهم يسعون اليه بدلا من أن يرفعوا ـ إذا جاز لهم ذلك ـ طلبهم إلى الخليفة الذي له وحده الحق ـ بحكم كونه خليفة المسلمين ـ في إجراء التحقيق وإنزال العقوبة بالجناة .

وإنهم ارتكبوا من الافعال البشعة ومن القتل ، والنهب والاعتداء ـ كما سنرى ـ ما يتضاءل دونه بمراحل مصرع الخليفة الذبيح على أهميته ، ومالا تجيزه الشريعة السمحاء ومبادىء الشرف والأخلاق .

وإنهم قصدوا البصرة ـ دون مصر ـ للبحث عن القاتلين .

وأن السيدة عائشة بالذات لا يجوز لها أن تساهم في مثل هذه الأمور ، وقد أوصاها الله أن تقر في بيتها[1] .

ثم هل يجوز شرعاً أن تعالج فتنة بإثارة فتنة أغلظ منها ؟ وقد حصل ذلك كله مع علم الثائرين أن الإمام نفسه بريء من دم بن عفان براءة الذئب من دم ابن يعقوب [2] .

يضاف إلى ذلك أن الإمام ـ في سياسته العامة ـ لم يتجه إطلاقاً الى الإستعانة بالذين ثاروا على عثمان أو تقريبهم أو الاعتماد عليهم في الإدارة أو المال .[3]

فلا غرو أن رأينا أولئك الثوار قد نقموا عليه ، كما نقموا على عثمان من قبله « مع فرق كبير في عوامل تلك النقمة في الحالتين » . فقد نقموا على عثمان : خروجه في سياسته العامة على مبادىء الدين ، ونقموا على عليٍّ : تقيده ـ في سياسته العامة ـ بمبادىء الدين .

لذلك نجد الإمام لم يقربهم إليه أو يعين بعضهم في القضاء أو الإمارة أو

---

(١) في لقاء لي مع : الدكتور طه حسين عام ١٩٦٥ م سألته : عن رأيه في عائشة أجاب بقوله : كان أحد الأساتذة يقول : لو ادركت عائشة لأوجعتها ضرباً حتى أقعدتها في بيتها لقوله تعالى : ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾الأحزاب : ٣٣ . راجع كتابنا : « مع رجال الفكر في القاهرة » ص ١٦٠ / ١٧٥ الطبعة الأولى القاهرة ـ مطبعة حسان عام ١٩٧٤ م الناشر .

(٢) هذا التشبيه غير مؤدب « الناشر » .

(٣) وهو ماء لبني عامر بن صعصعة يقع في بادية العراق الجنوبية .

الإدارة .

وقد أصبح الوضع الجديد أشد وطأة عليهم منه في عهد عثمان .

أي أن الإمام ، بعبارة أخرى ، قد ارتقى منبر النبي بعد ثورة لم يساهم فيها .

أي أنه اقتطف ثمار ثورة لم يقتطفها الذين قاموا بها . يضاف الى ذلك أن الثوار أخذوا يشعرون بأن الإمام سوف يقتص من قتلة عثمان بعد حصول البينة عنده .

وطلحة ، والزبير ، وعائشة يعرفون ذلك حق المعرفة . وعليٌّ نفسه عارف بأنهم عارفون به .

ومهما يكن من شيء فقد خرج الناكثون ـ وعلى رأسهم طلحة وابن الزبير وبنت أبي بكر ـ من مكة يريدون البصرة . ومرت إبلهم ـ في طريقها على ماء الحوأب[1] » فنبحتهم كلابه . فنفرت صعاب إبلهم .

فقال قائل منهم : لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها !!

فلما سمعت عائشة قالت :

ردوني . . . إني سمعت رسول الله يقول :

كأني بكلاب الحوأب قد نبحت بعض نسائي ثم قال : إياك يا حميراء أن تكونيها . . .

فقال الزبير لعائشة : مهلا فإنا قد جزنا ماء الحوأب . . فلفق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً شهدوا بذلك . فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام . . وكتب على لعثمان بن حنيف واليه في البصرة : أما بعد فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا[2] .

---

(١) ويذكر التاريخ أن الإمام (ع) استعان على جملة منهم كعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومالك الاشتر وغيرهم « الناشر » .

(٢) يشير الى بيعة الزبير وطلحة له ، ثم نكوصهما عن ذلك ، والى عهدهما له حين خرجا للعمرة من المدينة لمكة ـ بالرجوع الى المدينة وخرقهما لذلك العهد .

فإذا قدموا عليك فادعهم الى الطاعة . . . فإن أجابوا فأحسن جوارهم .

فلما وصل الكتاب أرسل عثمان بن حنيف أبا الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي ، فانطلقا . فدخلا على عائشة ووعظاها . . فقالت : ألقيا طلحة والزبير . . . فقاما من عندها ولقيا : الزبير فكلماه ، فقال لهما : إننا جئنا للطلب بدم عثمان . . . فقالا له : إن عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب بدمه فيها ، وأنت تعلم من هم قتلته وأين هم ، وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه وأعظمهم إغراء بدمه . . . وقد بايعتم علياً طائعين . . فقال لهما . . إذهبا فالقيا طلحة .

فقاما الى طلحة فوجداه خشن الملمس . . في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب .

وأتى طلحة والزبير عبد الله بن حكيم التميمي فأتى بكتب كانا كتباها إليه فقال لطلحة : أما هذه كتبك إلينا ؟ قال : بلى .

قال : فكتبت أمس تدعونا الى خلع عثمان وقتله ، حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه .

وخرج عثمان بن حنيف إلى طلحة والزبير في أصحابه فناشدهما الله والإسلام وذكرهما بيعتها لعلي . . . فقالا نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : ما أنتما وذاك ؟ أين بنوه . . . الذين أحق منكم ؟ فشتماه شتماً قبيحاً . .

ثم كتب الطرفان كتاباً للصلح . . . الى أن يقدم الخليفة . . . فمكثوا كذلك أياماً .

ثم إن طلحة والزبير . . . اجتمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب . . . فبايعهم على ذلك الأزد ، وضبة ، وقيس بن غيلان . . . وبنو عمرو بن تميم ، وبنو حنظلة . . . وبنو دارم كلهم إلا نفراً من بني مجاشع ذوي دين وفضل .

فلما استوثق لطلحة والزبير أمرهما ، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب . فانتهوا الى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه وأقيمت الصلاة فتقدم عثمان

ليصلي بهم فأخره أصحاب طلحة والزبير ، وقدموا الزبير ، فجاءت السيابجة[1] . فأخروا الزبير وقدموا عثمان بن حنيف ، فغلبهم أصحاب الزبير فقدموا الزبير وأخروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع ، وصاح بهم: المسجد . . فغلب الزبير فصلى بالناس .

فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المسلمين : أن خذوا عثمان بن حنيف ، فأخذوه وضربوه ضرب الموت ، ونتف حاجباه وأشفار عينيه وشعر رأسه ووجهه وأخذوا السيابجة . . . فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف الى عائشة . . فأمرت بذبح السيابجة ، فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدر كان في الإسلام »[2] .

ويجمل بنا ـ إكمالا للبحث في هذه النقطة ـ أن ننقل للقارىء قصة الناكثين كما رواها ابن الأثير [3] :

« خرجت عائشة الى مكة وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما كانت بسرف[4] لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له : عبيد الله بن أبي سلمة ـ وهو ابن أم كلاب ـ فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان وبقوا ثمانياً . . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعة علي فقالت :

ليت هذه انطبقت على هذه . . ردوني . . فانصرفت الى مكة تقول : قتل عثمان . مظلوماً[5] ، فقال لها عبيد الله بن أبي سلمة :

إن أول من أمال حرفة لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر .

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا : إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر

---

(١) وهم : الشرطة حرس بيت المال ، وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحرس سجون .
(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٤٩٧ ـ ٥٠١ .
(٣) الكامل في التاريخ : ٥ / ١٠٥ ـ ١٣٣ .
(٤) موقع بين مكة والمدينة .
(٥) لا بد أن القارىء قد لاحظ أن السيدة عائشة لم تعلق بشيء حين سمعت بمقتل عثمان ، ولكنها ثارت لمجرد سماعها بإجماع المسلمين على بيعة علي فطلب أن يردوها الى مكة وأصبح عثمان مظلوماً بنظرها .

فانصرفت إلى مكة فقصدت الحجر فتسترت فيه ، فاجتمع الناس حولها ، فقالت : أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار . . سفكوا الدم الحرام . . والله لأصبغ عثمان خير من طباق الأرض .

وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، ويعلي بن أمية ـ بن منية ـ من اليمن فلقيا عائشة ، فاستقام الرأي على البصرة ، وكان أزواج النبي مع عائشة على قصد المدينة ، فلما تغير رأيها إلى البصرة تركن ذلك .

وخرجت عائشة ومن معها من مكة ، فلما خرجوا منها أذن مروان بن الحكم .

ثم جاء طلحة والزبير وقال : على أيكما أسلم بالإمرة ، فقال عبد الله بن الزبير على أبي ، وقال محمد بن طلحة على أبي ، فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له :

أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصل بالناس ابن أختي عبد الله بن الزبير .

وكان معاذ بن عبد الله يقول : والله لو ظفرنا لأقتتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر . . فلما بلغوا ذات عرق لقى سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بها فقال : أين تذهبون وتتركون ثأركم على أعجاز الإبل وراءكم ؟ يعني عائشة ، وطلحة والزبير ، اقتتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم .

ثم خلا بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ ومضى القوم ومروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، فأتوا الحفير .

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين ، وأبا الأسود الدؤلي وقال لهما : إنطلقاً إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها .

فخرجا : فأتيا إليها بالحفير ، فأذنت لهما فدخلا وسلما ، وسألاها عن سبب خروجها .

فقالت : المطالبة بدم عثمان . . . فأتيا طلحة . . . فقال : المطالبة بدم عثمان ، فأتيا الزبير وقال لهما : مثل قول طلحة ، فرجعا إلى عثمان بن حنيف

وأخبراه . . .

وأقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد . . . فتكلم طلحة بالناس وذكر عثمان وفضله . . . ودعا إلى الطلب بدمه وحثهم على الأخذ به .

وكذا فعل الزبير ، وعائشة . . . وأقبل جارية بن قدامة السعدى وقال : يا أم المؤمنين :

والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك . . . وقد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك . . .

وخرج غلام شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير وقال : هل جئتما بنسائكما ؟

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطى والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها ... هذا المخبر عنهم والكاف

وجرت بين الطرفين مناوشات باللسان و بالسيف ـ

ثم كتبا كتاباً للصلح وتهادنا . . وجاء في كتاب الصلح :

هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما . . . وعثمان بن حنيف ومن معه .

إن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده ، وإن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما . . ولا يضار واحد من الفريقين في مسجد ولا سوق ولا طريق . . ولكن طلحة والزبير جمعا رجالهما في ليلة مظلمة ذات رياح ومطر .

ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء .

فقاتلوا أصحاب عثمان بن حنيف في المسجد . . وأخذوا عثمان أسيراً .

وضربوه أربعين سوطاً ونتفوا لحيته ، وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه .

وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان :

من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله إلى إبنها الخالص زيد بن صوحان أما بعد : فإن أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي ، فكتب إليها :

أما بعد : فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت ورجعت إلى بيتك . وإلا فأنا أول من نابذك . وقال زيد :

رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به وصعنت ما أمرنا به ونهتنا عنه .

وقام طلحة والزبير خطيبين يطالبان بدم عثمان . . فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغيرهذا . . ثم قام رجل من عبد قيس فقال :

يا معشر المهاجرين . . لما توفي الرسول بايعتم رجلا منكم فرضينا وسلمنا . . ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا .

فلما توفي جعل امكرم الى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير مشورتنا ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا .

ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا . فما الذي نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفيء ؟ أم عمل بغير الحق ؟ أو أتى شيئاً تنكرونه ؟ فنكون معكم عليه . وإلا فما هذا ؟ فهموا بقتل ذلك الرجل فمنعته عشيرته .

فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منهم سبعين .

وبقي طلحة والزبير [بعد أخذ عثمان بن حنيف] بالبصرة ومعهم بيت المال والحرس .

وتجهز على إلى الشام . فبينما هو كذلك أتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة . فتوجه الى البصرة ووقعت الحرب وانتصر علي ، فدخل البصرة . . . وراح إلى عائشة وهي في دار عبد الله بن خلف . . . وكانت صفية زوجة عبد الله

مختمرة . . . فلما رأته كلمته بكلام غليظ . فلم يرد عليها شيئاً ، ودخل على عائشة وسلم عليها وقعد عندها . ثم قال : جبهتنا صفية . . . فلما خرج أعادت صفية عليه قولها . فكف بغلته وقال :

هممت أن أفتح هذا الباب ـ وأشار الى باب في الدار ـ وأقتل من فيه . وكان فيه ناس من الجرحى فأخبر علي بمكانهم فتغافل عنهم .

وكان مذهبه ألا يقتل مدبراً ولا يدنف على جريح[1] ولا يكشف ستراً ولا يأخذ مالاً .

ولما خرج علي . . . قال له رجل من أسد : والله لا تغلبنا هذه المرأة . فقال له :

لا تهتكن ستراً ، ولا تدخلن داراً ، ولا تهيجن امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم . . ومضى فلحقه رجل فقال يا أمير المؤمنين :

قام رجلان على الباب فتناولا من هو أمضى شتما لك من صفية . قال :

ويلك لعلها عائشة ! قال نعم ، فبعث القعقاع بن عمرو الى الباب فأقبل بمن كان عليه فأحالوا على رجلين من أزد الكوفة وهما : عجلان ، وسعد ، إبنا عبد الله ، فضربهما مئة سوط وأخرجهما من ثيابهما .

ثم جهز عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك ، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات .

وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر .

فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه أتاها على فوقف لها .

وحضر الناس ، فخرجت وودعتهم ، وقالت :

---

(١) يدنف : أي مجهز عليه بالقال . « الناشر » .

يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ، إنه والله ما كان بيني وبين عليٍّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . . . وشيعها على أميالا وسرح بنيه معها يوما .

وقال عمار حين ودعها : ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك ؟ قالت : والله إنك ـ ما علمت ـ تقول الحق . قال : الحمد لله الذي قضى على لسانك لي » .

تلك هي قصة الناكثين . ولا نشك في أن القارىء قد لاحظ معنا الجرائم الكثيرة التي قاموا بها ؛ ومدى صلتها بالمطالبة بدم الخليفة الذبيح . فقد لفق الزبير وطلحة خمسين شاهد زور لعائشة في ماءِ الحوأب .

وكانت أول شهادة زور في الإسلام ، على ما يروي المؤرخون . وفي معرض التحدث عن شهادة الزور بنظر النبي يقول البخاري في صحيحه (ج ٨ ص ٤٨) بأسانيده المختلفة عن أبي بكرة قال :) بأسانيده المختلفة عن أبي بكرة قال : « قال النبي أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور ثلاثاً أقولها، أو أقول شهادة الزور .

فما زال يكررها ، قلنا : ليته سكت !! » .

على أن أم المؤمنين ـ لو كانت جادة في أمر عودتها الى المدينة قبل أن تبلغ البصرة ـ لما ثناها عن ذلك ـ برأينا ـ شهود الزور . ذلك لأنهم لم ينفوا مرورهم بالحوأب وإنما قالوا : إنهم مروا به قبل فترة .

وقد نكث الزبير وطلحة بيعتهم لعلي ، ونقضا عهدهما لعثمان بن حنيف مخالفين بذلك نص الآية الكريمة :

﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ .

كما اعتديا على حرمة المسجد وعلى الصلاة وقتلا السيابجة غدراً وصنعا ما صنعا بعثمان ابن حنيف والي البصرة ، ولعل موقف الناكثين في باطلهم من عثمان بن حنيف ـ في حقه ـ يعيد الى الذاكرة ـ على قاعدة وبضدها تتميز الأشياء ـ موقف النبي على حقه من سهيل بن عمرو ـ وهو على باطل ـ حين قال عمر بن الخطاب

للنبي على ما يحدثنا الطبري[1] :

« إنتزع ثنيتي سهيل بن عمرو السفليين ، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . فقال رسول الله : لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً » .

فقد امتنع الرسول الكريم عن التمثيل بأحد شيوخ المشركين ، في حين أن عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير قد مثلوا بأمير البصرة وهو شيخ من أفاضل المسلمين دون أن يقترف ذنباً يستحق عليه العقاب اللهم الا الوقوف بوجه العصاة على الخليفة ومن ورائه كتاب الله وسنة الرسول .

ولسنا نعلم صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان .

وهل : الاعتداء على عثمان ـ بغض النظر عن مسبباته ـ اكثر فظاعة من الاعتداء على عثمان بن حنيف وأصحابه ؟

ولماذا اعتدى طلحة والزبير على مسلمي البصرة ؟

هل يجيز الدين الحنيف ذلك الاعتداء من حيث المبدأ العام ؟ ومن حيث الشكل الذي وقع فيه ؟

ذكر الإمام مسلم[2] بأسانيده المختلفة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله : أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » .

والمنافقون ، كما وصفهم الله في سورة المنافقين :

﴿ واتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ألا ساء ما كانوا يعملون ﴾[3] .

ونحن نترك للقارىء تقدير الخلال الأخرى « تزيد عن الخلال الأربع » التي اتصف بها الناكثون .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٢ / ٢٨٩ .

(٢) صحيح مسلم ١ / ٤٢ .

(٣) المنافقين : ٢ .

ويتجسم ذلك الموقف إذا ما وازنه القارىء بموقف الإمام الكريم ، في حربه وسلمه ، مع خصومه وأنصاره على السواء .

* * *

الفصل الخامس

القاسطون

لقد مر بنا الحديث ـ في فصل سابق ـ عن حركة الناكثين ، تلك الحركة التي زرعت بذور التمرد ـ على النظام ـ في جسم المجتمع الإسلامي في عهد الإمام .

وحركة الناكثين ما هي ـ في الواقع ـ إلا جانب واحد من جوانب الصراع المسلح بين علي ومناوئيه ، وهي صورة من أروع صور الصراع بين الحق والباطل .

وقد شجعت فتنة الجمل ـ القاسطين ـ الحائرين ـ معاوية وأصحابه على القيام بعصيان مسلح على نظام الحكم في البلاد ، كما أتاحت لهم فرصة التجمع وحشد قوى الشر والإرهاب لمقاومة مبادىء الدين الحنيف الممثلة في خلق الإمام وفي سياسته العامة .

وقد انضوى تحت لواء معاوية كل من كان حاقداً على الإمام لعدالته وسلامة معتقداته في السياسة والدين والأخلاق . من ذلك مثلا :

أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان قد التحق بمعاوية « خوفاً من على أن يقيده بالهرمزان . وذلك أن أبا لؤلؤه ـ غلام المغيرة بن شعبة ـ قاتل عمر كان في أرض العجم غلاماً للهرمزان فلما قُتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله . . .

وكان الهرمزان عليلاً في الوقت الذي قتل فيه عمر . . فعفا عثمان عن عبيد الله فلما صارت الخلافة لعلي أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً من غير سبب استحقه . فلجأ إلى معاوية »[1] .

---

(١) المسعودي « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ٢ / ٢٦١ .

ولجأ إلى معاوية كذلك مصقلة بن هبيرة الشيباني ـ عامل عليّ في إحدى خطط فارس .

وسبب ذلك أن مصقلة كان قد اشترى أسرى الخوارج من جماعة الخريت بن راشد السامي ولكنه التوى بما شرطه على نفسه من ثمنهم . « فلما طالبه ابن عباس بأداء الدين قال : لو طلبت اكثر من هذا المال الى ابن عفان ما منعني إياه .

ثم احتال حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية . فتلقاه معاوية أحسن لقاءِ وأطعمه وأرضاه حتى طمع مصقلة في أن يحمل أخاه نعيم بن هبيرة على أن يلحق به . »[1]

وهكذا نجد ابن هند يحتضن الجناة ـ الفارين من وجه العدالة ـ ويغدق عليهم العطاء من بيت مال المسلمين فيزرع بتصرفه هذا بذور فساد الأخلاق في المسلمين ويشجع الناس على الخروج على مبادىء الدين الحنيف .

ولم تقتصر نتائج ذلك الزمن الذي عاش فيه ابن أبي سفيان بل تعدته فسارت في سجل الزمن منذ مصرع الإمام حتى يومنا هذا .

لقد تمرد معاوية على الخليفة وتنكر لمبادىء الدين متظاهراً بالطلب بدم عثمان ابن عفان[2] . ومعاوية ـ كما ذكرنا هو :

ابن هند آكلة الأكباد ، وأبوه ابو سفيان : الذي حارب النبي . . . ولم يسلم إلا بأخرة حين لم ير من الإسلام بداً ، وحين لم يكن إلا أن يختار بين الإسلام والموت . . .

ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم . . حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً [3] .

وكان على معاوية ـ إذا فرضنا أنه يجوز له أن يطالب بدم عثمان ـ[4] ولو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ١٢٧ .

(٢) في حين أن ولي عثمان الذي يسوغ له المطالبة بدمه من الناحية الشرعية هو ابنة عمرو كما ذكرنا .

(٣) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٦١ .

(٤) عبد الفتاح عبد المقصود « الإمام علي بن أبي طالب » ٢ / ٣٠١ .

ثم يأتي الى علي ـ مع أولياء عثمان ـ فيطالبون بالإقادة ممن قتله . ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان [1] بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي . وآية ذلك أن الأمر استقام له ـ بعد مصرع الإمام ـ فتناسى ثأر عثمان ولم يتبع قتلته . .

فالطلب بدم عثمان إذن لم يكن إلا أقصوصة اشترك في صوغها كل منافس لعلي ، حاقد عليه . وقد وسع كل شيء ووصل الى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ القتيل » .

وكان رأي علي في الموضوع كما يذكر ابن حجر العسقلاني[2] « أن يدخل معاوية وأصحابه في الطاعة .

ثم يقوم ولي دم عثمان بن عفان فيعمل الإمام معه ما فيه حكم الشريعة » .

وقد أشار الإمام علي الى ذلك في إحدى رسائله الى أهل الأمصار بعد صفين حين قال[3] :

« وكان بدء أمرنا أن التقينا والقوم من أهل الشام والظاهر أن ربنا واحد ونبينا

---

(١) ليس لدي الباحث من الأدلة المقنعة ما يمنعه من الاعتقاد باشتراك معاوية ـ بطريقة غير مباشرة ـ في التآمر على قتل عثمان ، فقد وهن العظم من عثمان وبلغ من الكبر عتياً . وليس من الممكن أو المعقول أن تنتقل الخلافة الى معاوية دون أن يقتل عثمان ، وإن بقاء عثمان سنتين أو ثلاثاً في الحكم ـ وتعديل سيرته السياسية ـ لم يكن في صالح معاوية وإذا لم يكن معاوية قد ألب الناس على الشيخ أو خذلهم عن نصرته فقد تقاعس عن مساعدته في احرج الظروف ، فقد ساهم في قتله من الناحية السلبية على أسوأ الفروض . ذلك لأن معاوية ، بحكم مركزه في الشام الذي استمر زهاء عشرين عاماً كان هو الوالي الوحيد الذي باستطاعته انقاذ حياة ابن عفان . ويجمل بنا في هذا الصدد ، أن نذكر القارىء بالمحاورة الطريفة التي جرت بين معاوية وأبي الطفيل حول تقاعس كل منهما عن نصرة عثمان . فقد سأل معاوية أبا الطفيل ـ متخابثاً ـ عن تقاعسه عن نصرة الخليفة ، فأجاب هذا بأن تقاعسه كان ضمن التقاعس العام الذي أبداه المهاجرون والأنصار . ثم وجه السؤال نفسه الى معاوية فأجابه بأن طلبه بدمه ـ في خلافة علي ـ نصرة له . فضحك أبو الطفيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

هذا إلى أن معاوية بإسناده إمارة مصر لابن العاص ـ الذي عزله عثمان عنها فجعله من المؤلبين عليه ـ قد برهن بوضوح على أن المطالبة بدم عثمان وسيلة للثورة على علي .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٥٠١ ، ٥٠٢ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٤ / ١٦١ ، ١٦٢ .

واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة . . . والأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء . فقلنا تعالوا نداوي مالا يدرك بإطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع فنقوى على وضع الحق في مواضعه .

فقالوا : بل نداويه بالمكابرة . فأبوا حتى ضجت الحرب . . فلما ضرَّ ستنا وإياهم ووضعت مخالبنا فينا وفيهم أجابوا عند ذلك الى الذي دعوناهم إليه . » .

ويلوح للباحث أن الخروج على ما توطا الناس عليه من العرف والخلق كان هو القاعدة العامة للأسرة الأموية في الجاهلية والإسلام .

وكتب التاريخ العربي زاخرة بالأمثلة على ذلك . وقد مر بنا ـ في فصل سابق ـ ذكر كثير من الشواهد والأمثلة في هذا الباب عندما تظاهر رؤوس الأمويين في الأنضواء تحت لواء الإسلام .

أما في الجاهلية فيجد الباحث :

على الرغم من قلة الأخبار الموثوقة عن سيرتهم ـ قصصاً ممتعة في هذا المضمار . من ذلك مثلا ما ذكره ابن الأثير[1] حين قال :

« كان لعبد المطلب جار يهودي يقال له : أذنيه : يتجر وله مال كثير . فغاظ ذلك حرب بن أمية . . فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي جد أبي بكر » .

وتتلخص حركة القاسطين ـ من حيث وقوع حوادثها من الناحية التاريخية ـ على الشكل التالي[2] :

« لما عاد علي الى البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة . . . وبعث جرير بن عبد الله البجلي . . . وكتب معه كتاباً الى معاوية يدعوه فيه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته ، فسار جرير الى معاوية .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ٩ .

(٢) ابن الأثير : « الكامل في التاريخ » ٣ / ١٤١ ـ ١٦٠ .

فلما قدم عليه ما طله معاوية واستنظره ، واستشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يجمع أهل الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم . ففعل معاوية ذلك . وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ـ الذي قتل فيه ـ مخضوباً بالدم . .

وضع معاوية القميص مدة وهو على المنبر . وأقسموا ألا يمسهم الماء الغسيل من الجنابة وألا يناموا على الفرش حتى يقتلوا : قتلة عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

فلما عاد جرير إلى علي وأخبره خبر معاوية واجتماع اهل الشام على قتاله . خرج علي فعسكر بالنخيلة . . وسرح الأشتر ببعض الجند امامه . . وقال له :

إياك أن تبدأ القوم بقتال : ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس . حتى أقدم عليك . .

وأصبح عليّ على غدوة الأشتر .

وكان معاوية قد سبق . . فأخذ شريعة الفرات . . فطلب أصحاب علي شريعة غيرها فلم يجدوا . فأتوا علياً فأخبروه بعطشهم . . فدعا صعصعة بن صوحان . فأرسله الى معاوية يقول له :

إنا سرنا سيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الاعتذار إليكم . فقدمت لنا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه أخرى قد فعلتموها ، منعتم الناس عن الماء . . فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء . . . لننظر فيما بيننا وبينك ، وفيما قدمنا له . .

فأصر معاوية وأصحابه على المنع . .

فلما علم علي بذلك قال :

قاتلوهم على الماء . . . فقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء .

وصار الماء في أيدي أصحاب علي ، فقالوا :

والله لا تسقيه أهل الشام ، فأرسل علي الى أصحابه أن خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم . .

ثم إن علياً دعا أبا عمر وبشير بن عمرو بن محصن الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعى التميمي فقال لهم : إئتوا هذا الرجل وادعوه الى الله وإلى الطاعة والجماعة . . . فأتوه . . . فابتدأ بشير . . وقال يا معاوية :

أنشدك الله أن تفرق هذه الأمة وتسفك دماءها بينها . .

فقطع معاوية عليه الكلام وقال :

ونترك دم عثمان ؟ والله لا أفعل ذلك أبداً . فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعى . . . فقال : يا معاوية .

والله لا يخفى علينا ما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قد قتل أمامكم مظلوماً ، فنحن نطالب بدمه . . وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب .

فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر اهله ، قال معاوية :

إن أول ما عرفت به سفهك . . . ان قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ، ثم . . . كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف . . .

انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف . . فأتوا علياً فأخبروه بذلك . . فجرت مناوشات بالسلاح بين الفريقين بدأها اهل الشام في أواخر عام ٣٦ هـ .

ثم دخلت سنة ٣٧ هـ وفيها جرت موادعة بين علي ومعاوية ، توادعا على ترك الحرب بينهما حتى ينقضى المحرم طمعاً في الصلح .

واختلفت بينهما الرسل . . فلم يسفر ذلك عن شيء . . فلما انسلخ المحرم . . خرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبئان الناس . . وعلي يقول لأصحابه :

لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حجة وتركككم قتالهم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عن عورة ، ولا تمثلوا بقتيل .

ولا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم .

وكان علي يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل مكان » .

ذلك ما يتصل بالمرحلة التمهيدية لحرب صفين قبل أن ينشب القتال بين الطرفين ، ونحسب أن القارىء قد لاحظ معنا جملة أمور :

منها : سعى الإمام الى دعوة ابن أبي سفيان ـ بالطرق السلمية المألوفة ـ الى عدم شقه عصا الطاعة على النظام ، وإحداث الفتنة بين المسلمين ، ليتسنى للخليفة ـ بعد ذلك ـ أن ينظر في الطلب الذي يقدمه له عمرو بن عثمان بن عفان ـ ولي عثمان حسب منطوق الآية التي ذكرناها ـ بشأن المتهمين بقتل عثمان كي يجري التحقيق اللازم ويتخذ الإجراءات القانونية بحق الجناة .

ولكنه معاوية ألب الناس على الإمام واتخذ قميص عثمان ستاراً للخروج على النظام ؛ وسار بجيوشه متمرداً باغياً يريد العراق . واستولى على ماء الفرات في موقع تجمع الجيشين ومنع أصحاب الإمام الذين لم يخرجوا لقتاله بل للتفاوض معه عساه يثوب الى رشده فيحقن دماء المسلمين .

فاضطر الإمام الى دعوة اصحابه لقتالهم على الماء فقط ، بعد أن فشلت مساعي صعصعة ابن صوحان كما رأينا ، وبعد أن بلغ العطش بأصحابه حداً لا يطاق .

وعندما أصبح الماء بحوزة أصحابه أمرهم بالسماح لخصومه بالاستقساء .

ولم يثنه غدر ابن أبي سفيان وأمشاجه ـ وخروجهم متمردين من الشام ، وابتداؤ هم أصحابه بالقتال وحجزهم الماء عنهم ـ عن مواصلة مساعيه السليمة .

فأرسل بشير الأنصاري ، وسعيد الهمداني ، وشبث التميمي ، لمفاوضة معاوية وإقناعه بالانصياع الى أوامر الله وسنة الرسول .

فأغلظ معاوية لهم القول وشتمهم وطردهم بعد أن حاول أن يوقف بين سعيد ، وشبث ـ العداوة والبغضاء بإثارة العصبية الجاهلية التي حار بها الإسلام . فأبى معاوية إلا الاستمرار في الطيش والعبث بأرواح الناس ومقدراتهم والاستهانة بمبادىء الدين الحنيف .

فحدث القتال المرير بين الجانبين وانهزمت قوى الشر أمام جيوش الإمام . فلجأ معاوية الى الحيلة والغدر ـ كعادته ـ فرفعت المصاحف وحصل التحكيم وخرج المارقون واغتيل الإمام كما سنرى .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول مرة أخرى :

إن الصراع بين القاسطين وبين قوى الإمام ما هو ـ في جوهره ـ إلا صراع بين رجلين يختلفان ـ كل الاختلاف ـ في الخلق وفي العقيدة . فمعاوية : « رجل لم يردعه وازع عن التماس أي أسلوب . . . مشروع أو غير مشروع للوصول الى هدفه وهو انتزاع الحكم من الإمام ـ ولم ير حرجاً في الدس ، ولا في الغدر ولا في الادعاء الباطل .

فقد كان همه أن يغدر وإن وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الأخلاق .

وكانت الخطة التي درج عليها الإمام تغاير ذلك .

لهذا فقد تباينت الأسلحة . فهي في يد علي معدومة وفي يد خصمه وفيرة ، وتعددت ميادينها أمام معاوية وضاقت حلقتها على الإمام ـ إلا ما أقره منها الدين وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة »[1] .

وتباين المقربون كذلك في الخلق والذين والهدف . فهم عند علي من خيرة اصحاب النبي وهدفهم السير وفق مستلزمات الإسلام . وهم ـ عند معاوية ـ من الوصوليين الانتهازيين :

عمار بن ياسر ومن هم على شاكلته من جهة ، وعمرو بن العاص ومن لف لفه من جهة اخرى .

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود : « الإمام علي بن أبي طالب » ٥ / ٦٦ ، ٦٧ .

وتباين الاتباع كذلك . فقد كان معاوية يحارب الإمام « بمئة ألف ما فيهم - على حد قوله - من يفرق بين الناقة والجمل »[1] .

وقد بلغت طاعة اهل الشام لمعاوية حداً يفوق الوصف[2] .

فقد صلّى بهم على ما يذكر المسعودي - عند مسيرهم الى صفين - الجمعة : يوم الأربعاء ، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها » .

وفي معرض التحدث عن موقف أهل الشام إزاء معاوية .

يقول المسعودي[3] : إن أحد إخوته من أهل العلم قال له : « كنا نقعد فنتناظر في أبي بكر وعمر ، وعلي ومعاوية ، فقال لي ذات يوم بعض أهل الشام - وكان من أعقلهم . وأكبرهم لحية - كم تظنون في علي ومعاوية ؟

فقلت له : من هو علي ؟ فقال . . . قتل علي في غزوة حنين مع النبي . .

ولما خرج عبد الله بن علي في طلب مروان الى الشام . . . وجه الى ابي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرئاسة ، فحلفوا للسفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة » وكان ذلك دون شك من آثار معاوية في تضليل الناس والتغرير بهم . فيكون معاوية - بالإضافة الى ما ذكرنا - مسؤولاً عن تشويه كثير من حقائق التاريخ الإسلامي وتزوير حوادثه .

أما أساليبه في الغدر بمناوئيه وتدبير المؤامرات لاغتيالهم فمعروفة لدى الكثيرين ، فقد دبر قضية سم الأشتر والحسن ، بعد أن نكث عهده .

وتتلخص قضية الأشتر النخعي في أن الإمام علياً قد ولاه مصر بعد أن عزل عنها محمد بن أبي بكر . « ولكن الأشتر لم يكد يصل الى القلزم حتى مات » .

وأكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية أغوى صاحب الخراج في القلزم . . . إن هو احتال في موت الأشتر ، فدس هذا الرجل للأشتر سماً في شربة من عسل

---

(١) عباس محمود العقاد: « عبقرية الإمام » ص ٥٠ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢ / ٣٣٤ .

(٣) المسعودي : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ٢ / ٥١ .

فقتله ليومه .

وكان معاوية وعمرو يتحدثان فيقولان إن لله جنوداً من عسل »[1] ، وكان غدره يتراوح بين الشدة واللين حسب الظروف ، فيلجأ إلى القسوة إذا أعيته الحيلة والمراوغة والدس ، من ذلك مثلا :

أنه اختار بسر بن أرطأة المعروف بقساوته ، وسيره على رأس جيش لتعقب خصومه .

وقد أوصى معاوية بسر بن أرطأة أن يقسوا على البادية من شيعة علي .

فمضى بسر ونفذ وصية معاوية وأضاف لها من عنده قسوة وغلظةواسرافاًفي الاستخفاف بالدماء ، والأموال ، والحقوق والحرمات ، فكان كثير الفتك في البادية ، وجاء المدينة فروَّع أهلها . . . وأمرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا مرغمين .

ومضى الى اليمن ففر عنها عامل علي وأعوانه .

ونشر فيها الروع بالإسراف في القتل ، ثم أخذ البيعة لمعاوية .

وبلغ خبره علياً فأرسل جارية بن قدامة ليرده عن اليمن ، ففر عنها بسر بن أرطأة ورجع الى الشام مفسداً في الأرض أثناء رجوعه ومسرفاً في القتل والنهب حتى ذبح ابني عبيد الله بن العباس وكانا صبيين .

ورد جارية اليمن الى طاعة الإمام ، وعاد الى مكة فعرف فيها أن علياً قد قتل »[2] .

يتضح مما ذكرنا ان خلق معاوية كان أقرب الى الوحشية منه الى الإنسانية ، على أنه كان في ـ وحشيته الخلقية ـ كالوحش المفترس تارة ، وكالثعلب المراوغ تارة اخرى أما الإمام فكان إنساناً كاملاً في دينه ، وسياسته وأخلاقه ، فقد امتلأت نفسه الكبيرة من خشية الله ، وحب الناس ، ونشر العدالة والإخاء بين المسلمين .

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ١٣١ .

(٢) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى علي وبنوه » ص ١٥٠ .

وكان موقف أتباعه منه ـ على حقه ـ مغايراً لموقف أتباع معاوية له على باطله كما رأينا .

وإلى القارىء طائفة من أقوال الإمام لأتباعه وهو في احرج ساعات نزاعه مع مناوئيه : « أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن لإسراعهم الى باطلهم وإبطائكم عن حقي .

ولقد اصبحتِ الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي .

أيها الشاهدة ابدانهم الغائبة عنهم عقولهم ، المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم : يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام : يعصي الله وهم يطيعونه .

والله لكأني بكم فيما أخالكم أن لو حمس الوغى وحمى الضرب قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها ، وإني لعلي بينة من ربي ، ومنهاج من نبي ، وإنني لعلى الطريق الواضح القطه لقطاً »[1] ، وقال في مكان آخر :

« ولكن بمن والى من ! أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي » كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها »[2] وأشار الإمام ـ في مناسبة اخرى ـ الى العامل الرئيسي في تقاعسهم عن نصرة الحق فقال : « أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟؟

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢ / ١٨٢ ـ ١٨٥ .

حمس الوغى . اشتد وعظم . الوغى في الأصل : الأصوات والجلبة ، وسميت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك . وانفراج المرأة عن قبلها أي وقت الولادة . وقوله القطه لقطاً يريد أن الضلال غالب على الهدى وأنه التقط طريقه من ههنا وههنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة قد اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما فهو يلتقط النهج التقاطاً .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ولكن بمن كنت أعمل ذلك والى من أخلد في فعله . . وأما الحاضرون لنصرتي فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشقاق والعصيان .

وأما الغائبون من شيعتي ـ كأهل البلاد النائية ـ فإلى أن يصلوا قد بلغ العدو غرضه مني ولم يبق من أخلد اليه في إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأي . . . إلا إذا أستعين ببعضكم على بعض فأكون كناقش الشوكة بالشوكة .

يقول : لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها فإن إحداهما في القوة والضعف كالأخرى . فكما أن الأولى انكسرت لما وطئتها فدخلت في لحمك فالثانية ـ إذا حاولت استخراج الأولى بها ـ تنكسر في لحمك .

والله لا أطور به ما سمر سمير . . . ولو كان المال لي لسويت بينكم فكيف وإنما المال مال الله ؟؟ وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله »[1] .

وخاطب اتباعه ـ في موقع آخر ـ فقال :

« أيتها النفوس المختلفة ، الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم ، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون منه ، هيهات أن أطلع بكم سرار العدل ، أو أقيم اعوجاج الحق ؟؟

اللهم أنت تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من سننك »[2] .

وخاطبهم في موقف آخر فقال : « لم تكن بيعتكم إياي فلتة[3] ؛ وليس أمري وأمركم واحداً ، إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم .

أيها الناس أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً »[4] .

* * *

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٣٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ٣٧٨ ، ٣٧٩ أظأركم : أعطفكم . . والسرار آخر ليلة في الشهر وتكون مظلمة ، ويمكن عندي : أن يفسر على وجه آخر وهو : أن يكون السرار ههنا بمعنى السرر ، وهي : خطوط مضيئة في الجبهة . . فيكون معنى الكلام هيهات أن تلمع بكم لوامع العدل ، وتتجلى أوضاعه ، ويبرق وجهه وهو يمكن أن يكون فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينصب سرار ههنا على الظرفية ويكون التقدير : هيهات أن أطلع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه فيكون قد حذف المفعول به .

(٣) الفلتة : الأمر يقع في غير تدبر ولا روية . وفي الكلام تعريض ببيعة أبي بكر لأن المشهور عن عمر أنه قال : « إن بيعة أبي بكر فلتة وقانا الله شرها » .

(٤) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٤٠٣ .

الفصل السادس

التحكيم ، المارقون ، ومصرع الإمام

لقد حاول علي ـ جهد استطاعته ـ أن يتجنب الحرب التي سعى معاوية ما أمكنه ـ إلى إشعال نارها . كما حاول عبثاً ـ إقناع معاوية وصحبه بالكف عن إيذائه وإيذاء رعاياه . فأوكل ـ مضطراً ـ أمره الى السيف . فبدأت الحرب بين الجانبين .

« ولما رأى عمرو بن العاص أن أمر العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا أجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟

قال : نعم .

قال : نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها حكم بيننا وبينكم .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم . فلما رآها الناس قالوا : نجيب كتاب ار . فقال لهم عليّ : عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم . فأن معاوية وعمرو وابن أبي معيط ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

أنا أعرف منكم بهم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالا . ويحكم ما رفعوها إلا خديعة .

فقال أصحابه : لا يسعنا أن ندعي الى كتاب الله فنأبي أن نقبله . فقال لهم علي : إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم كتاب الله . فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم . فأصر أصحابه إلا وقف القتال وقبول التحكيم .

واقترح أصحاب معاوية أن يبعث كل فريق من يمثله على أن يعمل الحكمان

بما في كتاب الله لا يعدو انه ثم يتبع الفريقان ما اتفق عليه الحكمان ، فاختار أهل الشام عمرو ، وبعض اهل العراق ابا موسى الأشعري .

فقال عليّ لقومه : قد عصيتموني في أول الأمر ـ فأوقفتم القتال ـ إني لا أرى أن أولى أبا موسى . فإنه ليس بثقة . قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني . فأبوا الا أبا موسى .

فقال : فاصنعوا ما أردتم . . فكتب كتاب التحكيم :

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

إننا ننزل عند حكم الله وكتابه . . فما وجد الحكمان في كتاب الله عملا به ، وما لم يجداه . . فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة .

وأخذ الحكمان ؛ من علي ، ومعاوية ، ومن الجندين ، من العهد والمواثيق أنهما آمنان وأهليهما والأمة »[1] .

وشهد علي ما في الكتاب من أصحاب علي :

« الحسن والحسين إبنا علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ، والأشعث بن قيس ، والاشتر بن الحارث ، وسعيد ابن قيس ، والحسين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري وعبد الله بن خباب ابن أرت وسهل بن حنيف ، وأبو بشر بن عمر الأنصاري وعون بن الحارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبد الله الأسلمي ، وعقبة ابن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والنعمان بن العجلان الأنصاري ، وحجر بن عدي الكندي ، ويزيد بن حجية النكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، والحارث بن مالك ، وحجر بن يزيد ، وعلبة بن حجية .

ومن أهل الشام : حبيب بن مسلمة ، وأبو الأعور السلمي ، وبسر بن أرطأة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحارث ، ومسلم بن

---

(١) ابن الأثير : « الكامل في التاريخ » ٣ / ١٦٠ ـ ١٦٨ .

السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحمزة بن مالك ، وسبيع بن يزيد الحضرمي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن يزيد الكلبي ، وخالد بن الحصين السكسكي ، وعلقمة بن يزيد الحضرمي ، ويزيد بن أيجر العيسى ، ومسروق بن جبلة العكي ، وبسر بن أبي يزيد الحميري ، وعبد الله بن عامر القرشي ، وعتبة بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، ومحمد بن عمرو بن العاص ، وعمار بن الأحرص الكلبي ، ومسعدة بن عمرو العتبى ، والصباح بن جهلمة الحميري ، وعبد الرحمن بن ذي الكلام ، وتمامة بن حوشب ، وعلقمة بن حكم » [1] .

ثم اتفق علي ومعاوية على ما يذكر الدينوري[2] « على أن يكون مجتمع الحكمين بدومة الجندل ـ وهو المنصف بين العراق والشام . ووجه عليّ مع أبي موسى شريح بن هانىء في أربعة آلاف من خاصته وصير عبد الله بن عباس على صلاتهم وبعث معاوية عمرو بن العاص وأبا الأعور السلمي في مثل ذلك من أهل الشام .

فساروا من صفين حتى وافوا دومة الجندل . وانصرف عليّ بأصحابه حتى وافى الكوفة[3] ، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دمشق ، ينتظران ما يكون من أمر الحكمين .

وكان عليّ إذا كتب الى ابن عباس في أمر اجتمع اليه اصحابه فقالوا : ما كتب إليك أمير المؤمنين ؟ . . وتأتي كتب معاوية الى عمرو بن العاص فلا يأتيه احد من أصحابه يسأله عن شيء من أمره . . وعندما اجتمع الحكمان وتداولا في الأمر[4] . قال عمرو لأبي موسى . وأين أنت من معاوية ؟ قال أبو موسى :

ما معاوية موضعاً لها . . قال عمرو : ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ؟

---

(١) الدينوري ، « الأخبار الطوال » ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) الأخبار الطوال : ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

(٣) فامتنع الذين أصروا على وقف القتال ، وقبلوا التحكيم من أصحاب الإمام من دخول الكوفة مع الإمام ، فيكون منهم المارقون الذي أرغموا الإمام ـ بعد ذلك ـ على حربهم بالنهروان .

(٤) ووأحى عمرو الى رفيقه : أن موضوع خلع علي من الخلافة قد بات مفروغاً منه ، وأن المشكلة هي اتفاقهما على من سيخلفه .

قال بلى .

قال : فإن معاوية ولىّ عثمان . . قال أبو موسى : إن ولى عثمان ابنه عمرو . ولكن إن طاوعتني أحيينا سنة عمر بن الخطاب وذكره بتوليتنا ابنه عبد الله . .

هلم نجعلها للطيب ابن الطيب . قال عمرو :

يا ابا موسى لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر .

قال أبو موسى : أرى أن نخلع هذين الرجلين ـ علياً ومعاوية ـ ثم نجعلها شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من أحبوا .

قال عمرو : فقد رضيت بذلك ، وهذا الرأي الذي فيه صلاح الناس » .

كان أبو موسى قد عوده عمرو أن يتقدم في الكلام عليه .

وكثيراً ما كان عمرو يقول له : « أنت صاحب رسول الله وأسن مني فتكلم وأتكلم ، وتعود ذلك أبو موسى ، وأراد عمرو بذلك أن يقدمه في خلع عليّ . ,

فلما اتفقا على خلع عليّ ومعاوية . . أقبلا الى لناس وهم مجتمعون . فقال عمرو :

يا ابا موسى أعلمهم أن رأينا اتفق ، فتكلم أبو موسى فقال :

إن رأينا اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو : صدق وبر . تقدم يا أبا موسى فتكلم فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال ابن عباس : ويحك إني والله لأظنه ق خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على رأي فقدمه ليتكلم به قبلك ، ثم تكلم بعده ، فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما . فإذا قدمت في الناس خالفك .

وكان أبو موسى مغفلا فقال : إنا قد اتفقنا وقال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها . . إلا أن نخلع علياً ومعاوية ، ويولى الناس أمرهم من أحبوا . . وإني قد خلعت علياً ومعاوية .

ثم تنحى وأقبل عمرو فقام وقال : إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ؛ وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه .

قال أبو موسى الأشعري لعمرو: لاوفقك الله غدرت وفجرت .

إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث ، قال عمرو :

إن مثلك كمثل الحمار يحمل اسفاراً . . والتمس أهل الشام أبا موسى فهرب الى مكة .

ثم انصرف عمرو وأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة »[1] .

يتضح مما ذكرنا : أن رفع المصاحف حيلة دبرها عمرو بن العاص للحيلولة بين القاسطين وبين الفرار أمام جيوش الإمام .

وقد فطن الإمام الى ذلك ووصف عمرو ومعاوية وابن أبي معيط بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

وقد مر بنا ذكر شيء من سيرة معاوية وابن أبي معيط ، ونود في هذه المناسبة ـ أن ننقل الى القارىء قبل الاسترسال في موضوع التحكيم ـ طرفاً من سيرة عمرو بن العاص ليتبين الأسس التي استند إليها على في وصمه عمراً وصاحبيه بالبعد عن الدين والقرآن ، وعمرو هو : ابن العاص السهمي الذي « كان من المستهزئين بالنبي .

وقد أنزل الله فيه قول : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾[2] .

أما المستهزؤون الآخرون فقد ذكرهم ابن خلدون[3] بقوله :

« ولما رأت قريش النبي قد امتنع بعمه وعشيرته ، وأنهم لا يسلمونه ، طفقوا يرمونه ـ عند الناس ممن يفد على مكة ـ بالسحر والكهانة والجنون والشعر ،

---

(١) ابن الأثير « الكامل في التاريخ » ٣ / ١٦٠ ، ١٦٨ .

(٢) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ٢ / ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) ابن خلدون « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٢ / ١٧٧ .

يرومون بذلك صدهم عن الدخول في دينه ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والإيذاء ، منهم :

عُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط ـ أحد المستهزئين .

وأبو سفيان من المستهزئين ، والحكم بن أمية من المستهزئين أيضاً .

والعاص بن وائل السهمي وابنا عمه : نبيه ومنبه .

وقاموا يستهزئون بالنبي ويتعرضون له بالاستهزاء والإذاية حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده » . أما أم عمرو بن العاص « فثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن الباغية أم عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال .

فلما خرج ابنها الى النور تهامست الألسن عن أبيه وتاهت حقيقة نسبة بين بضعة نفر . . منهم العاص ومنهم أبو سفيان . ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرفيقين إذ كان اوفر النفر ثروة وأسخاهم عليها في الإنفاق فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل في تغليب المادة على أوثق العلاقات وإنه لمبدأ رضعه من ثدييها وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد »[1] .

هذا هو البيت الذي نشأ فيه عمرو بن العاص .

أما مواقف عمرو نفسه من الإسلام ـ في أوائل عهده ـ فمعروفة لدى الكثيرين .

فقد كان أشد الكفار خصومة للنبي يوم أحد .

ويحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ بعض شعره :

لما رأيت الحرب ينزو شررها بالرضف نزوا
أيقنت أن الموت حق و الحياة تكون لغوا
حملت أثوابي على عُتَد يبذ الخيل رهوا [2]

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود ، الإمام علي بن أبي طالب ، ٢ / ٢٧٥ .

(٢) ابن هشام ، سيرة النبي محمد ، ٣ / ١١٦ . ينزو : يرتفع ويثب . وأرضف الحجارة المحماة بالنار ، العتد : الفرس الشديد ، يبذ : يسبق ، والرهو : الساكن ، اللين .

ولما يئس عمرو من الانتصار على النبي في الحرب لجأ الى الغدر والدس والتوارى عن الأنظار . قال عمرو ، على ما يذكر ابن هشام[1] :

« لما انصرفنا من الاحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني . فقلت لهم : إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً . . فأرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدي محمد .

وإن ظهر قومنا : فنحن من عرفوا . » .

وقد كان عمرو ـ كما رأينا ـ من أكبر المؤلبين على عثمان .

وهو الذي صرفه عن تطبيق حد الله في عبيد الله بن عمر بن الخطاب لقتله الهرمزان .

« فقد أقبل ابن العاص على عثمان ـ حين رأى عثمان أن ينظر في الاقتصاص من عبيد الله . . .

فقال له : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان الحدث ولا سلطان لك »[2] .

ولما بلغ عمرو ـ وهو بفلسطين كما ذكرنا ـ بأن الناس قد بايعوا علياً وبأن معاوية يأبى البيعة اتصل عمرو بمعاوية وحبذ له فكرة المطالبة بدم عثمان .

ومن الطريف أن نذكر ـ في هذه المناسبة ـ : أن المؤرخين يكادون يجمعون على ذكر قصة استشارة عمر لولديه عبد الرحمن ومحمد ، وهو بفلسطين ـ في شأن موقفه من النزاع بين علي ومعاوية « فقال له عبد الله : إن كنت لا بد فاعلا فإلى علي . قال عمر : إني إن أتيت علياً يقول لي : إنما أنت رجل من المسلمين . وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في الأمر . وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي .

---

(١) سيرة النبي محمد : ٢ / ١٧٧ .

(٢) عبد الفتاح عبد المقصود الإمام علي بن أبي طالب ٤ / ٨٣ ، وإذا كان الأمر كذلك فقد قتل عثمان وليس لعلي سلطان على الناس فلماذا أقام عمرو الدنيا عليه وأقعدها .

فقال لهما عمرو : أما أنت يا عبد الله فقد اخترت لآخرتي .

وأما أنت يا محمد فقل اخترت لدنياي . . وقدم عمرو على معاوية . . وسأله أترى إننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ؟ . . لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها »[1] ولا ندري ما صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان ! !

هذا هو ممثل معاوية في التحكيم .

أما ممثل علي فهو أبو موسى الأشعري الذي كان يخذِّل الناس عن نصرة الخليفة حين كان والياً له على الكوفة الأمر الذي اضطر الخليفة الى عزله .

ولنعد الآن الى موضوع التحكيم .

فإذا نظرنا إليه من الناحية المبدئية العامة ـ أي تحكيم كتاب الله وسيرة نبيه فيما يحصل من اختلاف بين وجهات نظر المسلمين في أمورهم الدينية ، والدنيوية ـ فإن الإمام علي لا يرضى بغير ذلك بديلا .

وقد بنى سياسته العامة ـ في السلم والحرب ومع أنصاره وأعدائه على السواء ـ وفق مستلزمات القرآن والسنة . وتألب عليه خصومه ـ وهرب منه بعض أنصاره ـ لتمسكه بذلك في جميع تصرفاته . وقد مر بنا رفضه ـ قبول الخلافة أثناء الشورى لوضع شرط ثالث بجانب الكتاب والسنة . كما مر بنا جانب من موقفه مع الناكثين ودعوته إياهم الى تحكيم الكتاب والسنة فيما خرجوا عليه ، فلم يعترض الإمام « إذن » على التحكيم الذي دعا إليه معاوية وأصحابه ـ من حيث المبدأ .

وإنما اعترض على الشكل الذي جاء فيه والظروف التي أحاطت به .

فقد رفع خصومه المصاحف على الرماح في الوقت الذي كانت فيه جيوشه سائرة الى نصرها المبين .

ودعوا (كاذبين) إلى تحكيم القرآن الذي حاربوه ، وحاربوا من أنزل عليه في الجاهلية والإسلام .

واخترقوا نصوصه (وسنة الرسول) في تصرفاتهم العامة من الناحيتين الدينية

---

(١) عباس محمود العقاد « معاوية بن أبي سفيان » ص ٥٣ ـ ٥٥ .

والدنيوية .

فقد أمر معاوية ـ بإقتراح من ابن العاص كما ذكرنا ـ أصحابه أن يربطوا المصاحف على أطراف القنا ، فربطت المصاحف .

وأول ما ربط مصحف دمشق الأعظم ، ربط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال . ثم ربطوا سائر المصاحف ، جميع ما كان معهم . وأقبلوا في الناس[1] . ونظر أهل العراق إلى أهل الشام قد أقبلوا وأمامهم شبيه بالرايات ، فلم يدروا ما هو حتى أضاء الصبح ، فنظروا فإذا هي المصاحف . وأقبل أبو الأعور السلمى على برذون[2] أشهب وعلى رأسه مصحف وهو ينادي :

يا أهل العراق هذا كتاب الله حكماً فيما بيننا وبينكم .

فتكلم عليّ وقال :

عباد الله أنا أحرى من أجاب الى كتاب الله . . . إن القوم ليسوا يريدون بذلك إلا المكر ، وقد عضتهم الحرب ، والله لقد رفعوها وما رأيهم العمل بها . وليس يسعني ـ مع ذلك ـ أن أدعي الى كتاب الله فلا أجيب . وكيف ! وإنما قاتلتهم ليدينوا بحكمه ! »[3] .

وعندما وقف القتال ، وانصاع القاسطون ـ في الظاهر ـ إلى رأي الإمام في تحكيم القرآن والسنة لحسم النزاع بين المعسكرين .

وافق الإمام على قبول التحكيم ـ التحكيم الذي هو مبدؤه في تصرفاته كافة ـ إستمع إليه يخاطب ابن ابي سفيان : إن البغى والزور يوقعان بالمرء في دينه ودنياه . . . ويبديان خلله عند من يعيبه . قد علمت إنك غير مدرك ما قضى فواته .

وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم . . . وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله . ولسنا إياك أجبنا ولكننا أجبنا القرآن في

---

(١) الغلس : بعد العشاء الآخرة وقبل الفجر « الناشر » .
(٢) البرذون، صنف من الخيل الغير العربية . « الناشر » .
(٣) الدينوري : « الأخبار الطوال » ص ١٩١ ، ١٩٢ .

حكمه »[1] .

وخاطبه ـ في موضع آخر ـ فقال : « لقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي . فجعل أحدنا حجة على الآخر . فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني ، وعصيته أنت وأهل الشام بي . وألب عالمكم جاهلكم وقائمكم قاعدكم »[2] فالإمام إذن لم يعترض على مبدأ التحكيم .

بل التحكيم بالشكل الذي دعاه اليه معاوية والظروف التي حصل فيها . وبعد أن زالت تلك الظروف ووضعت الحرب أوزارها اختفت عوامل ممانعة الإمام بقـولـه :

غير أن الإمام اعترض ـ بعد ذلك ـ على تعيين بعض أصحابه أبا موسى الأشعري ليمثله في ذلك .

وقد كان اعتراض الإمام مبنياً ـ من حيث الأساس ـ على القول بأن الممثل يجب أن يتبنى فكرة من يمثله ـ بغض النظر عن سلامتها ـ ليتسنى له القيام بواجبه على وجه الأتم . فعمرو بن العاص خير من يمثل معاوية في هذه الناحية .

فلما أصر أصحاب الخليفة على رأيهم في تعيين أبي موسى رجع الإمام الى نفسه ـ على ما يبدو ـ وقلب الأمر على وجوهه فلم ير بأساً من الموافقة عل ذلك لأن موضوع التحكيم سوف يسير ـ حسبما اتفق الجانبان المتعاقدان ـ على نصوص القرآن وسنة النبي حيث ينكشف لأبي موسى زيفه السابق في التخذيل عن الإمام .

وما دام موضوع التحكيم ـ برأي الإمام ـ منصباً على حسم الخلاف بينه وبين معاوية ـ وهو نزاع يتصل ـ على ما ادعى معاوية ـ بالمطالبة بدم الخليفة القتيل ، فسوف ينظر الحكمان ـ في القرآن والسنة ـ فيما اذا كان عثمان قد قتل مظلوماً من جهة ؟

وفيما إذا كان لمعاوية الحق في المطالبة بدم عثمان من الناحية الشرعية ـ أي انه

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١٦٠ والإشارة هنا الى مقتل عثمان .

ولى عثمان ـ من جهة ثانية ؟

وفيما إذا كان الأسلوب الذي اتبعه معاوية للمطالبة المذكورة ـ في حالة شرعيتها ـ هو الأسلوب السليم من جهة ثالثة ؟

وفيما ينبغي للخليفة أن يفعله من جهة رابعة ؟

فاطمأن عليّ إلى ذلك كل الأطمئنان .

غير أن اجتماع الحكمين قد جعل الموضوع يسير باتجاه آخر لا صلة له إطلاقاً بموضوع المطالبة بدم ابن عفان .

فأغفل عمرو صاحبه ابتداء ـ كما رأينا .

وألقى في روعه أن موضوع التحكيم ينحصر في تعيين خليفة جديد للمسلمين ـ كأن خلع عليٌّ من الخلافة قد بات أمراً مفروغاً منه .

فاقترح عمرو اسم معاوية فرفضه ابو موسى كما رأينا . واقترح عمرو ـ بعد ذلك ـ اسم إبنه عبد الله فرفضه أبو موسى أيضاً ، الأمر الذي حدا بأبي موسى أن يتقدم هو بمرشح جديد . وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ولما اطمأن عمرو الى ثبوت ذلك الرأي في ذهن زميله ـ أي فكرة خلع الخليفة وتعيين آخر بدله ـ جعل موضوع البحث ينحصر في الاتفاق على المرشح الجديد .

ولما ظهر أنهما لم يتفقا على شخص معين بالذات ، طلب من أبي موسى أن يقترح حلا للخروج من ذلك المأزق الحرج الذي يتوقف عليه مصير الحكم في البلاد والذي يرقبه المسلمون ـ بفارغ الصبر ـ في كل مكان .

فتقدم ابو موسى باقتراح جديد ظنه كسباً له واندحاراً لعمرو بن العاص .

فقد خيل إليه أنه سينتصر إذا ما وافق عمرو على « خلع » معاوية بعد أن بات خلع الإمام أمراً متفقاً عليه . فوافق عمرو ـ في الظاهر ـ على الفكرة وأغراه بإعلانها على الناس ، ثم عاد فغدر به على الشكل الذي وصفناه .

وقد برز عمرو ـ في ذلك كله ـ بأبشع ما يبرز فيه الرجل من الخداع ، والدس ، والتدني عن مستويات الأخلاق الرفيعة . فأغفل صاحبه وأغراه على

خلع علي ومعاوية على السواء ليترك الأمر للمسلمين يختارون من يشاؤون .

فلما أعلن أبو موسى رأيه على الناس ـ كما مر بنا ـ نهض عمرو فأكد خلع علي وتثبيت ابن أبي سفيان . ولا ندري علاقة ذلك كله بالمطالبة بدم عثمان !! وهل تنازع علي ومعاوية على الخلافة ؟

وهل كان معاوية خليفة حتى يخلعه أبو موسى ويثبته ابن العاص ؟

ومهما يكن من شيء فقد حصل خلع الإمام وتثبيت معاوية . فارتاع دعاة التحكيم في عسكر الإمام .

فظهر المارقون من الخوارج . . وقالوا : لا حكم إلا لله وهي كلمة حق يراد بها باطل على ما ذكر الخليفة . وأراد أصحاب علي قتال الخوارج في بادىء الأمر ولكنه أبى عليهم ذلك وأنكره ـ كشأنه في مواقفه الأخرى ضد مناوئيه ـ وقال :

« إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وإن أفسدوا قاتلناهم »[1] .

بدأ المارقون نشر الفساد في المناطق التي كانوا يسكنون فيها ، فنهبوا واغتالوا وتعاطوا كثيراً من الموبقات . « فقتلوا عبد الله بن الخباب بن الأرت ـ وخباب من خيرة الصحابة ـ وقتلوا نسوة كن مع عبد الله . وجعلوا يتعرضون الناس ويذيعون الذعر .

فأرسل اليهم عليٌّ رجلا من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد .

فلم يكد هذا الرسول يدنو منهم حتى قتلوه »[2] .

فلم يجد عليّ بداً من مقاتلتهم في النهروان .

وقد وجد الإمام نفسه مع ذلك كله ، وأمام هذه الأمور العظام ، وفي قلب هذ الفتنة الغليظة المظلمة . . كأحسن ما يجد الرجل نفسه .

صدق إيمان ، ونصحاً للدين ، وقياماً بالحق ، واستقامة على الطريق المستقيمة ، لا ينحرف ولا يميل ولا يداهن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

وإنما يرى الحق فيمضي اليه لا يلوي على شيء ولا يحفل بالعاقبة ، ولا يعنيه أن يجد في آخر طريقه نجحاً أو إخفاقاً ، ولا أن يجد في آخر طريقه حياة أو موتاً .

وإنما يعنيه كل العناية أن يجد أثناء طريقه ـ وفي آخرها ـ رضا ضميره ورضا الله »[1] .

فلا عجب إن رأينا حياته بعد النهروان خاصة ، على ما يقول الدكتور طه حسين[2] .

« محنة شاقة الى أقصى حدود المشقة ، كان يرى الحق واضحاً صريحاً . . وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه في الكوفة ؛ ويعايشون عامله في البصرة، وينبثون في أطراف السواد بين المصريين . . وكانوا يكيدون للإمام .

يشهدون صلاته ويسمعون خطبه وأحاديثه ، وربما عارضه منهم المعارض فقطع عليه الخطبة والحديث ، وهم على ذلك مطمئنون الى عدله .

ويأخذون تعيينهم من الفيء وحظوظهم من المال !!

فأطمعهم عدله وإسماحه ، وأغراهم لينه وبره .

جاء أحدهم ذات يوم وهو : الحريث بن راشد السامي فقال له : والله لا أطعت أمرك ولا صليت خلفك . . فلم يغضب على ذلك ولم يبطش به ، وإنما دعاه إلى أن يناظره ويبين له وجه الحق لعله أن يثوب اليه .

فقال له الحريث : أعود إليك غداً فقبل منه على فانصرف الرجل الى قومه .

ثم خرج بهم في ظلمة الليل من الكوفة يريد الحرب . ولقى الحريث وأصحابه في طريقهم رجلين سألوهما عن دينهما .

وكان احدهما يهودياً ، فلما أنبأهم بدينه خلوا سبيله .

وأما الآخر فكان مسلماً من الموالي ، فلما أنبأهم بدينه سألوه عن رأيه في علي

---

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ١٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٢٢ ـ ١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ١٣٣ .

فقال خيراً ، فوثبوا عليه فقتلوه »[1] .

واستمر الحريث وأصحابه على عبثهم وفسادهم بأرواح الناس وممتلكاتهم مما اضطر الإمام الى تجهيز حملة لتأديبهم وانقاذ الناس من اعتدائهم .

ولم يقف امتحان الإمام عند الحد الذي وصفناه من خروج الناكثين فالقاسطين فالمارقين ، وإنما تعداه الى ابن عباس عامله على البصرة أقرب الناس اليه . « وكان لأبن عباس من العلم بأمور الدين والدنيا ، ومن المكانة في بني هاشم خاصة وفي قريش عامة ، وفي نفوس المسلمين جميعاً ما كان خليقاً أن يعصمه من الانحراف »[2] .

ويلوح للباحث أن ابن عباس « آثر نفسه بشيء من الخير وسار في بيت المال سيرة تخالف المألوف من أمر علي ومن أمره هو .

وكأنه أنس من صاحب بيت المال ـ وهو أبو الأسود الدؤ لي ـ شيئاً من النكير فأغلظ له في القول ذات يوم .

وضاق أبو الأسود بما رأى وسمع فكتب الى علي . . . فروَّعه . . .

ولكن علياً صبرَ نفسه على ما تكره ، كما تعود أن يفعل دائماً . .

فكتب الى ابن عباس . . . بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وخنت أمانتك وعصيت إمامك وخنت المسلمين .

فارفع الى حسابك ، واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس . . .

وليس غريباً أن يكتب علي الى ابن عباس ما كتب ، فهو لم يتعود الرفق في أمر المال ، ولا الإدهان في أمر من أمور المسلمين . .

ولكن ابن عباس أعرض عن هذا كله ، فاعتزل عمله ولكنه مع ذلك لم يستعف إمامه ولم ينتظر أن يعفيه ، وإنما أعفى نفسه وترك البصرة ، ولحق بمكة حيث لا يبلغه سلطان الإمام » .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ١٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠ ، ١٣٨ .

غير أن ابن عباس « لم يكتف بما بلغ من هذه المغاضبة ، ولا بما انتهى اليه من هذا التصرف الغريب بل أضاف إليه شراً عظيماً لم يسوء به الإمام وحده .

وإنما أساء به الرعية كلها وعامة أهل البصرة خاصة .

فهو قد أزمع الخروج الى مكة ولكنه لم يخرج منها فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولي عليها .

وإنما خرج منها وقد ملأ يديه بما كان في بيت المال مما ينقل .

وهو يعلم أن ليس له في هذا المال حق إلا مثل ما لأهل البصرة جميعاً فيه »[1] .

فمضى امتحان علي « على هذا النحو المر : خيانة من الوالي ، وكيداً من العدو . وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة ، لا يرضى الدنية من الأمر ، ولا يداهن في دينه ولا يتحول عن سياسته الصريحة قليلاً ولا كثيراً .

والمحن تتتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض ، وهو ماض في طريقه لا ينحرف عنه الى يمين أو شمال »[2] .

وفي غمرة النضال وزحمة الصراع مع الباطل تصدى له ابن ملجم فأصاب منه مقتلا « ويروى المؤرخون : أن علياً أمر من حوله أن يحسنوا إطعام ابن ملجم ويكرموا منواه . فإن برىء من ضربته نظر ، فإما عفا وإما اقتص .

وأمرهم : إن مات أن يلحقوه به ولا يعتدوا : إن الله لا يحب المعتدين » .

* * *

---

(١) الفتنة الكبرى ـ علي وبنوه ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٣ .

القسم الثالث

بين علي ، ومعاوية

١ ـ الفصل السابع : مقتطفات من سيرة الإمام
٢ ـ الفصل الثامن : نماذج من تصرفات معاوية

الفصل السابع

مقتطفات من سيرة الإمام

أشرنا في الفصول السابقة إلى كثير من الحوادث التي دلت على تمسك الإمام بكتاب الله وسنة رسوله فيما يتعلق بتصرفاته العامة والخاصة ، في زمن الحرب وفي وقت السلم ، مع أنصاره وخصومه على السواء . وها نحن ننقل إلى القارىء بعض آثاره التي رواها كبار المؤرخين المسلمين .

(١)
فلسفة الحكم

تتلخص فلسفة الحكم ـ عند الإمام ـ في عهده للاشتر الذي ولاه مصر فدس له السم ـ في الطريق ـ أحد الأشخاص بتحريض من معاوية وعمرو بن العاص كما يحدثنا الرواة . والى القارىء ملخص العهد[١] :

« هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده اليه حين ولاه مصر . . أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه . .

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه الى أمور الولاة قبلك .

ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم . .

فليكن أحب الذخائر إليك خيرة : العمل الصالح .

أشعر قلبك الرحمة للرعية . . فإنك فوقهم . .

أنصف الله وأنصف الناس من تفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك . . وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية . فإن سخط العامة ، يجحف برضاء الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة . .

وليكن أبعد رعيتك منك . . أطلبهم لمعايب الناس . . إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة . .

---

(١) ابن ابي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٤ / ١١٩ ، ١٥٢ .

ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بالحق لك . . الصق بأهل الورع والصدق ، ثم حثهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله . .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء : فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .

وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه ، واعلم أنه ليس شيء أدعى الى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤنات عليهم . .

لا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة . .

وصلحت عليها الرعية .

ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن . .

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء . .

واعلم : أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض ؛ فمنها الجنود ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل وعمال الإنصاف وأهل الجزية والخراج من أهل الذمة ، ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة .

وكل قد سمى الله له سهمه ، ووضع على حده وفرضه في كتابه أو سنة نبيه . .

إن فضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية . .

اختر للحكم بين الناس : أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم . . ثم انظر أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وإثرة . .

أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوك أمرك . .

ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم . . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في إصلاحهم صلاحاً لمن سواهم . . لأن الناس

كلهم عيال على الخراج . .

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً . . واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضر للعامة وعيب على الولاة .

فامتنع من الاحتكار ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبة من غير إسراف .

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين . .

إجعل لهم قسماً من بيت المال . . ولا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم .

وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع لترفع اليك أمورهم .

واجعل لذوي الحاجات وقتاً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه . .

وتعقد عنهم جندك وأعوانك من حراسك وشرطك حتى يكلمك مكلمهم غير متمتع . . ثم احتمل الخرق منهم والعيّ ونح عنهم الضيق . .

ولا تطولن احتجابك عن رعيتك . . فالاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه . . فيشاب الحق بالباطل . وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس من الأمور . وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب . .

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في المعاملة :

فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال . .

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد . .

وحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة . . فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً ـ مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود . .

ولا تغدرن بذمتك . . وإياك والدماء وسفكها بغير حلها . . ولا عذر لك عند الله ولا عندى في قتل العمد . .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء . . وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك . .

أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك . . وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها . . .

فضع كل أمر موضعه . . أملك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك .

واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الأختيار » .

(٢)
حرصه على بيت المال

لقد مر بنا جانب من ذكر حرص الإمام على أموال المسلمين عندما تحدثنا عن موقفه من ولده الحسين في قضية العسل ، ومن أخيه عقيل حين قدم عليه طالباً زيادة حصته من الدقيق .

وإلى القارىء طائفة من الأمثلة الأخرى في هذا الباب .

قال هارون بن عنترة عن أبيه : دخلت على عليّ بالخورنق ـ وهو فصل شتاء ـ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت :

يا امير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً ، وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال :

والله ما أرزأكم شيئاً . وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة »[1] .

ولم ينزل الإمام ـ على ما يحدثنا الرواة ـ « القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخاصاص التي كان يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام .

وروي النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على عليّ فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسرة يابسة . فقلت : يا امير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟

فقال لي : يا ابا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ، ويلبس أخشن

---

(١) العقاد : « عبقرية الإمام علي » ص ص ١٣ ، وابن الأثير : « الكامل في التاريخ » ٣ / ٢٠٠ .

من هذا ـ وأشار الى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »[1] .

وكتب ابن الأثير : أن عاصم بن كليب روى عن أبيه أنه قال : « قدم على عليّ مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم . فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ودعا امراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولاً .

وذكر يحيى بن مسلمة : أن علياً استعمل عمرو بن مسلمة على أصبهان « فقدم ومعه مال كثير وزقاق فيها عسل وسمن .

فأرسلت أم كلثوم بنت عليّ الى عمرو تطلب منه سمناً وعسلا . فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن . فلما كان الغد خرج عليّ وأحضر المال والسمن والعسل ليقسم . فعد الزقاق فنقصت زقين . فسأله عنهما . فكتمه وقال : نحن نحضرهما . فعزم عليه إلا ذكرهما له . فأخبره . فأرسل الى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا ، فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما ، فكان ثلاثة دراهم .

فأرسل إليها فأخذها منها ! ، ثم قسم الجميع . .

وقال سفيان : إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة .

وقيل : إنه اخرج سيفاً الى السوق فباعه وقال : لو كان عندي أربعة دراهم ثم إزار لم أبعه ، وكان لا يشتري ممن يعرفه ، وإذا اشترى قميصاً قدر كمه على طول يده وقطع الباقي ، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول :

لا احب أن يدخل بطني إلا ما أعلم »[2] .

---

(١) عباس محمود العقاد « عبقرية الإمام علي » ص ٢٥ .
(٢) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

(٣)
تواضعه وعدله

ذكر الشعبي ـ على ما يقول ابن الأثير[١] :

إن علياً وجد درعاً عند نصراني « فأقبل إلى شريح قاضيه وجلس إلى جانبه يخاصم النصراني مخاصمة رجل من رعاياه ، وقال : إنها درعي ولم أبع ولم أهب ، قال شريح للنصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟

قال النصراني : ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين بكاذب ؟!

فالتفت شريح ، إلى عليّ يسأله . يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ؟ فضحك علي . .

وقال : أصاب شريح ، مالي من بينة ؟ فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى . . وأمير المؤمنين ينظر إليه . . إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . . أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه . . وقاضيه يقضى عليه ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين » .

وكان الإمام ، لشدة تواضعه وحرصه على إقامة العدل بين رعيته ، إذا أراد أن يشتري شيئاً بنفسه ، على ما يذكر الدكتور طه حسين « تحرى بين السوقة رجلا لا يعرفه فاشترى منه ما يريد .

وكان يكره أن يحابيه البائع إن عرف أنه أمير المؤمنين ، ثم كان لا يرضى عن نفسه إلا إذا أدى للناس حقهم عليه في دينه فأقام لهم صلاتهم وعلمهم بالقول والعمل وقام على اطعام فقرائهم طعام العشاء وتحرى ذوي الحاجة منهم فأغناهم

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢ .

عن المسألة .

وكان يخلو لنفسه إذا كان الليل فينصرف عن الناس الى عبادته الخاصة مصلياً مجتهداً حتى يتقدم الليل ، فإذا أخذ بحظه من النوم غلس بالخروج الى المسجد »[1] .

(١) الدكتور طه حسين : « الفتنة الكبرى علي وبنوه » ص ١٥٩ .

(٤)
تحليل لسياسته العامة

« اعلم أن قوماً ممن لم يعرفوا حقيقة فضل علي بن أبي طالب ، زعموا : أن عمر ابن الخطاب كان أسوس منه ، وإن كان هو أعلم من عمر ، وصرح بذلك أبو علي ابن سينا : وعلي بن أبي طالب كان مقيداً بقيود الشريعة مدفوعاً الى اتباعها .

ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً .

فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن يلتزم بذلك ، ولسنا ـ بهذا القول ـ زارين على عمر . . ولكن عمر كان مجتهداً يعمل بالقياس . .

ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء والاستنباط من أصول تقضي خلاف ما يقتضيه عموم النص ، ويكيد خصمه ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة ، ويؤدب بالدرة والسوط ـ من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب .

ولم يكن علي يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص لا يتعداها الى الاجتهاد والاقسية ، ويطبق أمور الدنيا على أمور الدين ويسوق الكل مساقاً واحداً .

ولا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والنص . .

ولم يكن يرى مخالفة الشرع لأجل السياسة سواء أكانت سياسته دينية أم دنيوية .

أما الدنيوية : فنحو أن يتوهم الإمام في إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير

أن يثبت ذلك عليه يقيناً .

فإن علياً لم يكن يستحل قتله ولا حبسه ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق .

وأما الدينية : فنحو ضرب المتهم بالسرقة فإنه لم يكن يعمل به بل يقول : أن يثبت عليه بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد وإلا لم أعترضه .

. . . وإذا كان مذهبه ما قلناه وكان معاوية عنده فاسقاً وقد سبق عنده مقدمة اخرى ويقينية هي : أن استعمال الفاسق لا يجوز ، ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة فقد تعين مجاهرته بالعزل ، وإن أفضى ذلك الى الحرب . . وجواب ـ على الاعتراض على عزله معاوية ـ وهو : أنا علمنا أن الأحداث التي نقمت على عثمان . . توليته معاوية الشام مع ما ظهر من جوره وعدوانه ومخالفته أحكام الدين . . . وقد خوطب عثمان في ذلك فاعتذر . .

فلو أن علياً فتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام وإقراره فيه أليس كان يبتدي .

أول أمره بما انتهى اليه عثمان في آخره ؟ . .

ولو كان إقراره معاوية في حكم الشريعة سائغاً والوزر فيه مأموناً لكان غلطاً قبيحاً في السياسة وسبباً قرباً للعصيان والخالفة . ولم يكن يمكن علياً أن يقول للمسلمين .

إن حقيقة رأيي هي : عزل معاوية عند استقرار الأمر وطاعة الجمهور .

وإن قصدي ـ بإقراره على الولاية ـ مخادعته وتعجيل طاعته . . لأن إظهاره لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه . .

ومما اعترض على علي به : أنه ترك طلحة والزبير حتى خرجا الى مكة وأذن لهما في العمرة ، وظهر عنه الرأي في ارتباطهما قبله ومنعهما من البعد عنه ـ في عهد عمر ـ .

وقد روي عن عليٍّ انه قال لهما ـ :

والله ما تريدان العمرة وإنما تريدان الغدرة وخوّفهما بالله من التسرع الى الفتنة .

واخذ عليهما عهد الله وميثاقه في الرجوع الى المدينة ؛ وما كان يجوز له - في الشرع أن يحبسهما ، ولا في السياسة ، فلأنه لو أظهر التهمة لهما - وهما من أفاضل السابقين وجلة المهاجرين - لكان في ذلك من التنفير عنه ما لا يخفى ومن الطعن عليه ما هو معلوم . .

لا سيما وأن طلحة كان أول من بايعه . والزبير لم يزل مشتهراً بنصرته »[1] .

---

(١) ابن أبي الحديد « شرح نهج البلاغة » ٢ / ٥٧٣ - ٥٨٣ .

(٥)
بعض أقواله المأثورة

١ ـ الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها ، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والأعمى إليها شاخص ، والبصير منها متزود والأعمى لها متزود[١] .

٢ ـ ليس لواضع المعروف في غير حقه وعند غير أهله إلا محمدة اللئام وثناء الأشرار ومقالة الجهال ما دام منعماً عليهم .

٣ ـ إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله . . ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر .

٤ ـ إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن انفسهم .

٥ ـ خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم ، وإن عشتم حنوا إليكم .

٦ ـ إحذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع .

٧ ـ هلك فيَّ رجلان : محب غال ومبغض قالٍ .

٨ ـ احذروا أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون . .

يمشون الخفاء ويدبون الضراء . . لهم بكل طريق صريع .

---

(١) هذا القول وما بعده من الأقوال مأخوذة من « شرح نهج البلاغة » لابن ابي الحديد .

وإلى كل قلب شفيع ، ولكل شجو دموع ، يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء .

إن سألوا الحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا .

وقد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ، ولكل حي قاتلا ، ولكل باب مفتاحاً ، ولكل ليل مصباحاً .

٩ ـ احذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .

واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية .

واحذر كل عمل إذا سئل صاحبه أنكره أو اعتذر منه .

١٠ ـ فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه .

١١ ـ الصبر صبران : صبر على ما تكره وصبر عما تحب .

١٢ ـ من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .

١٣ ـ إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان ، وسبيلان مختلفان ، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها .

وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر .

١٤ ـ صاحب السلطان كراكب الأسد يغبطُ بموقعه وهو أعلم بموضعه .

١٥ ـ من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته .

١٦ ـ العدل صورة واحدة والجور صور كثيرة ، ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرى العدل ، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها .

وإن الإصابة تحتاج الى ارتياض وتعهد ، والخطأ لا يحتاج الى شيء من ذلك .

١٧ ـ أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها . ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها .

١٨ ـ لقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً والشرفيه إلا إقبالاً . . . اضرب بصرك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً أو غنياً بدل نعمة الله كفراً أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً . . أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً . . لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به .

١٩ ـ يا أبا ذر : غضبت لله فارج من غضبت له .

إن القوم خافوك على دنياهم وخفتم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم الى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ،

٢٠ ـ إن لسان المؤمن من وراء قلبه ، وإن قلب المنافق من وراء لسانه ، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه ، فإن كان خيراً أبداه ، وإن كان شراً واراه . وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه ، لا يدري ماذا له وماذا عليه .

٢١ ـ والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر .

٢٢ ـ ومن وصية له للحسن كتبها إليه بحاضرين من صفين :

من الوالد الفاني . . المستسلم للدهر . . .

إلى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك . . تاجر الغرور ، وغريم المنايا . . وصريع الشهوات .

أوصيك بتقوى الله أي بني ولزوم أمره . وأمر بالمعروف تكن من أهله وأنكر المنكر بيدك ولسانك . . ولا تأخذك في الله لومة لائم . .

وخض الغمرات للحق حيث كان .

وتفقه في الدين ، وعود نفسك التصبر على المكروه .

وأخلص في المسألة لربك . .

واعلم : أنه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه . .

أي بني : إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى الى من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره ، اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك .

يا بني اجعل من نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك . فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك أو اكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك .

وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل مالا تعلم وان قلَّ ما تعلم .

واعلم : أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا . . وأنت طريد الموت الذي لا ينجو منه هارب . . فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حالة سيئة .

وإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها . . فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهرُّ بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها . . سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، فتاهوا في حيرتها . . ونسوا ما وراءها .

واعلم يا بني : أن من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن كان واقفاً . .

وأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إليه الرغائب . . . وما خير ؛ خير لا ينال إلا بشر ، وبشرٌ لا ينال إلا بعسر . . وتلافيك ما فرط من صمتك ايسر من إدراكك ما فات من منطقك . . والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

إحمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة . . وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد . . وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه .

لا تتخذ من عدو صديقك صديقاً ، فتعادى صديقك ، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة .

ولن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك .

إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما . .

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى . .

استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فإن الأمور أشباه ، ولا تكون ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب .

(٦)
ما ينطبق عليه من آي الذكر الحكيم

سورة النساء : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ .

سورة فصلت : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ .

سورة المنازعات : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى : ﴾ .

الفصل الثامن

نماذج من تصرفات الخليفة الجديد

لقد مر بنا ذكر نماذج من تصرفات معاوية تجاه خصومه وأتباعه معاً . وكان طابع تلك التصرفات ، كما لاحظ القارىء ، الغدر والإيقاع بالخصوم ، وبذل المال وتوزيع المناصب على الأتباع .

أي أن سياسة معاوية كانت سياسة وصولية انتهازية تسير على المبدأ القائل : بأن الوسائل تبررها الغايات ، ولو كانت الغايات نبيلة عادلة تهدف الى توزيع العدل الاجتماعي بين الناس لكان هناك مجال أمام الباحث للدفاع عنها ، ولكنها كما رأينا :

أهداف شخصية نفعية غرضها الظاهر التوصل إلى الحكم بمختلف الأساليب والوسائل .

وهدفها البعيد تحطيم روح الإسلام والقضاء على مثله العليا في السياسة والأخلاق .

وقد نجح معاوية ـ مع الأسف الشديد ـ فيما كان يتوق الى التوصل إليه ، فاستولى على خلافة المسلمين ، وسار بها وفق أهوائه ومصالحه ، وخلف للمسلمين والعرب هذا التراث الاجتماعي البغيض وهذه العصبية الطائفية والقبلية المجرمة التي نكتوى بنارها في الوقت الحاضر .

وإلى القارىء نماذج أخرى من تصرفات ابن أبي سفيان ، سقناها لغرض موازنتها بتصرفات ابن أبي طالب ، ليرى القارىء الفرق الكبير بين الرجلين ، ومدى التدهور الذي أصاب نظام الحكم في الإسلام ، وقديماً قيل : وبضدها تتميز الأشياء .

(١)
مأساة حجر بن عدي

ذكر ابن الأثير[١] قصة حجر وأتباعه فقال: « دخلت سنة إحدى وخمسين وفيها قتل حجر بن عدي وأصحابه وسبب ذلك أن معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة إحدى وأربعين . فلمّا أمره عليها دعاه وقال :

قد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك ، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تترك شتم عليّ وذمه ، والترحم على عثمان ، والعيب لأصحاب عليٍّ ، والإقصاء لهم ، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم .

فأخذ المغيرة يشتم علياً . . فإذا سمع ذلك حجر بن عدي قال :

بل إياكم ذم الله ولعن . أنا أشهد أن من تذمون أحق بالفضل .

وقد حبس المغيرة أرزاق حجر وأصحابه . فكان حجر يناديه بقوله :

مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك .

ثم توفي المغيرة وولى زياد فاستمر على الفعل نفسه .

وجمع زياد من أصحاب عدي أثنا عشر رجلا في السجن وأحضر شهوداً وقال : إني لأحب أن يكون الشهود أكثر من أربعة ، فدعا الناس ليشهدوا فشهد جمع كبير منهم : اسحق ، وموسى ، ابنا طلحة بن عبيد الله ، والمنذر بن الزبير ، وعمار ابن عقبة ابن أبي معيط .

ثم دفع زياد حجر بن عدي وأصحابه إل وائل بن حجر الحضرمي وكثير ابن

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٣٣ ـ ٢٣٩ .

شهاب وأمرهما أن يسيرا بهم الى الشام فخرجوا عشية فلما بلغوا الغريين لحقهم شريح بن هاني وأعطى وائلا كتاباً فقال : أبلغه امير المؤمنين فأخذه . وساروا حتى انتهوا بهم الى مرج عذراء عند دمشق وكانوا :

حجر بن عدي الكندي ، والأرقم بن عبد الله الكندي ، وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة بن ضبيع العبسى ، وكريم بن عفيف الخثعمي ، وعاصم بن عوف البجلي ، وورقاء بن سمى البجلي ، وكدام بن حسان ، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان ، ومحرز بن شهاب التميمي ، وعبد الله بن حوية السعدي . .

واتبعهم برجلين هما : عتبة بن الأخمس بن سعد بن بكر ، وسعد بن نمران الهمداني . فتموا أربعة عشر رجلا .

ودفع وائل الى معاوية كتاب شريح بن هاني . فإذا فيه : بلغني أن زياداً كتب شهادتي وأن شهادتي على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال » .

وروى الطبري[1] مأساة ابن عدي وصحبه على الشكل التالي :

« جاء قيس بن عباد الشيباني الى زياد فقال له : إن شخصاً منا من بني همام يقال له صيفي بن فسيل من رؤوس اصحاب حجر وهو أشد الناس عليك ، فبعث إليه زياد فأتى به فقال له زياد : يا عدو الله ما تقول في أبي تراب قال : ما أعرف أبا تراب .

قال : أما تعرف علي بن أبي طالب ؟ قال : بلى . قال : فذاك أبو تراب .

قال : كلا ذاك أبو الحسن والحسين .

فقال له صاحب الشرطة : يقول لك الأمير هو أبو تراب ؟ وتقول أنت لا . قال : وإن كذبت الأمير أتريد أن أكذب وأشهد له على باطل كما شهد . قال له زياد : وهذا أيضاً مع ذنبك !!! على بالعصا . فأتى بها فقال ما قولك ؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٦ / ١٤٩ ـ ١٥٥ .

قال : أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين .

قال : اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلتصق بالأرض فضرب حتى لزم الأرض .

ثم قال : اقلعوا عنه فسأله : إيه ما قولك في علي .

قال : والله لو شرحتني بالمواسي والمدى ما قلت إلا ما سمعت مني .

قال : لتلعننه أو لأضربن عنقك قال : إذاً تضربها والله قبل ذلك فإن أبيت إلا أن نضربها رضيت بالله وشقيت أنت قال : ادفعوا في رقبته .

ثم قال : أوقروه حديداً وألقوه في السجن .

ويستمر الطبري على سرد تلك المأساة فيروي لنا قصة شهادة الزور الكبرى التي لفقها حكام المسلمين آنذاك على هؤلاء النفر من المسلمين .

« هذا ما كان عليه أبو بردة بن أبي موسى لله رب العالمين شهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة .

وجمع إليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء . فقال زياد :

على مثل هذه الشهادة فاشهدوا ، أما والله لأجهدن على قطع خيط عنق الخائن الأحمق .

فشهد رؤوس الأرباع على مثل شهادته وكانوا أربعة .

ثم إن زياداً دعا الناس فقال : اشهدوا على مثل شهادة رؤوس الأرباع .

فقرأ عليهم الكتاب فقال أول الناس عناق بن سرجيل بن أبي دهم التيمي فقال : زياد أبدأوا بأسامي قريش ثم اكتبوا اسم عناق في الشهود ومن نعرفه ويعرفه أمير المؤمنين .

فشهد إسحق بن طلحة بن عبيد الله ، وموسى بن طلحة ، واسماعيل بن طلحة والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن أبي معيط ، وعبد الرحمن بن هناد ، وعمر ابن سعد بن أبي وقاص ، وعامر بن مسعود بن أمية ، ومحرز بن ربيعة بن

عبد العزى ابن عبد شمس ، وعبيد الله بن مسلم بن شعبة الحضرمي ، وعناق بن شرجيل بن أبي دهم ووائل بن حجر الحضرمي ، وكثير بن شهاب ابن حصين الحارثي وقطن ابن عبد الله بن حصين والسري بن وقاص الحارثي .

وكتبت شهادته وهو غائب في عمله ـ والسائب بن الأقرع الثقفي وشبث ابن ربعي وعبد الله بن أبي عقيل الثقفي ، ومصقلة بن هبيرة الشيباني والقعقاع بن شور الذهلي ، وشداد بن المنذر بن الحارث بن وغلة الذهلي . . وحجار بن أبجر العجلي ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي ، ولبيد بن عطارد التميمي ، ومحمد بن عمير بن عطارد التميمي ، وسويد بن عبد الرحمن التميمي وأسماء بن خارجة القزاري ، وشمر بن ذي الجوشن العامري وشداد ومروان ابنا الهيتم الهلاليان ، ومحصن بن ثعلبة بن عائذة القرشي ، والهيثم بن الأسود النخعي ـ وكان يعتذر إليهم وعبد الرحمن بن قيس الأسدي ، والحارث وشداد ابنا الأزمع الهمدانيان وكريب بن سلمة بن يزيد الجعفي ، وعبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي ، وزحر بن قيس الجعفي ، وقدامه بن العجلان الأزدي ، وعزرة بن عزة الأحمس .

وكتبت شهادة هؤلاء الشهود في صحيفة ثم دفعها زياد الى وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي ،وبعثهما عليهم ، وأمرهما أن يخرجا بهم.

وكتب في الشهود شريح بن الحارث القاضي وشريح بن هاني الحارثي .

فأما شريح القاضي فقال :

سألني عن حجر فأخبرته أنه كان صواماً قواماً .

وأما شريح بن هاني الحارثي فكان يقول :

ما شهدت ولقد بلغني أن قد كتبت شهادتي فأكذبته ولمته . . . فمضوا بهم حتى انتهوا الى الغريين فلحقهم شريح بن هاني معه كتاب .

فقال لكثير : بلغ كتابي هذا أمير المؤمنين .

ودفع وائل بن حجر كتاب شريح بن هاني فقرأه فإذا به : أما بعد فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجر بن عدي وإن شهادتي على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

حرام الدم والمال » .

وأما من قتل من أصحاب حجر فهم كما يقول الطبري :

« حجر بن عدي وشريك بن شداد الحضرمي ، وصيفي بن فسيل الشيباني ، وقبيصة ابن ضبيعة العبسي ، ومحرز بن شهاب السعدي ثم المنقري ، وكدام بن حيان العنزي وعبد الرحمن بن حسان العنزي الذي رد الى زياد فدفن حياً »[1] .

وقد رثت هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية حجراً :

ترفع أيها القمر المنير ... تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
ألا يا حُجر حجر بن عدي ... توقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أرضى عديا ... وشيخاً في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقاً ... له من شر أمته وزير

وهكذا انتهت ، على ما يقول الدكتور طه حسين[2] :

« هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها أمير من أمراء المسلمين أن يعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها ، وأن يكره وجوه الناس وأشرافهم على أن يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً ، وأن يكتب شهادة القاضي على غير علم منه ولا رضا . . .

استباح أمير من أمراء المسلمين لنفسه هذا الإثم ، واستحل هذه البدع واستباح إمام من أئمة المسلمين أن يقضي بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم ، دون أن يراهم أو يسمع لهم أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم » .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٦ / ١٥٥ .
(٢) الفتنة الكبرى . علي وبنوه ص ٢٤٣ .

نماذج اخرى من غدر معاوية
(٢)

لقد مر بنا الإلماع إلى بعض حوادث غدر معاوية بخصومة ، وبخاصة تدبيره مؤامرة قتل الأشتر في طريقه الى مصر . ولعل أبرز تلك الحوادث :

غدره بالحسن بن علي بعد الصلح المعروف الذي عقد بين الطرفين .

ولم يكتف معاوية بالنكث بذلك العهد ، وإنما ذهب الى تدبير مؤامرة قتل الحسن .

قال المسعودي[١] « وذكر أن امرأة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته السم ، وقد كان معاوية دس لها » .

وذكر المسعودي كذلك[٢] « أن عبد الله بن العباس وفد على معاوية فقال : والله إني لفي المسجد إذ كبر معاوية في الخضراء فكبر أهل الخضراء . . فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف ـ وهي زوج معاوية بن أبي سفيان ـ من خوخة لها فقالت :

سرك الله يا أمير المؤمنين ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟ قال موت الحسن » وفعل معاوية شيء مشابه لما ذكرناه في قضية تدبيره مؤامرة قتل عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد . .

* * *

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢ / ٣٠٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٠٧ .

(٣)
إلحاقه زياد بن أبيه بأبي سفيان

ذكر المسعودي[١] : « ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان ـ أبيه ـ وذلك في سنة أربعين شهد عنده زياد بن أسماء الحر مازني ، ومالك بن ربيعة السلوى ، والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه . . . ثم زاده يقيناً الى ذلك شهادة أبي مريم السلولي .

وكان اخبر الناس ببدء الأمر ، وذلك أنه جمع بين أبي سفيان وسمية أم زياد في الجاهلية على زنى ، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة الى الحرث بن كلدة وكانت تنزل في الموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف وخارجاً عن الحضر في محلة يقال لها حارة البغايا . . . » .

ثم ذكر المسعودي نص شهادة الاستلحاق : « قال أبو مريم السلولي » :

أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف . وأنا خمار في الجاهلية فقال : ابغني بغياً فأتيته وقلت لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة سمية .

فقال : ائتني بها على ذفرها وقذرها .

فقام يونس بن عبيد أخو صفية مولاة سمية .

فقال : يا معاوية قضى الله ورسوله أن الولد للفراش والعاهر الحجر وقضيت أن الولد للعاهر . . مخالفة لكتاب الله » . ويستطرد المسعودي في ذكر هذه القصة الطريفة فيروي ما قاله عبد الرحمن بن أم الحكم في ذلك من شعر :

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢ / ٣١٠ ـ ٣١٢ .

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال : أبوك عف وترضى أن يقال : أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

وفي زياد وإخوته يقول خالد البخاري :

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي أعجب العجب !!
إن رجالاً ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفي النسب
ذا قرشي فيما يقول : وذا مولى وذا ابن عمه عربي

ويروى ابن أبي الحديد[1] ظروف قصة الاستلحاق على الوجه التالي : « فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال : العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يهددني ، ثم كتب إلى علي وبعث بكتاب معاوية في كتابه . . وكتب له الإمام :

إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذره ثم احذره . . . فلما قتل علي بقي زياد في عمله وخاف معاوية جانبه وعلم صعوبة ناحيته وأشفق من ممالأته الحسن . . . . فكتب اليه . . .

أما بعد : فإنك عبد قد كفرت النعمة واستدعيت النقمة . . . لا أم لك ، بل لا أب لك .

يا ابن سمية إذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الإجابة . . وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعي . وأقسم قسماً مبروراً أن لا أوتي بك الا في زمارة ، تمشي حافياً من أرض فارس الى الشام حتى أقيمك في السوق وأبيعك عبداً وأردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه . . .

فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً وجمع الناس وصعد المنبر .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٦٨ - ٧٢ .

وقال : إن ابن آكلة الآكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، وسر النفاق ، ورئيس الأحزاب .

ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب الى يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها .

ثم نزل ، وكتب الى معاوية . . لقد وصل إليّ كتابك . . فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع . . ولولا حلم ينهاني عنك . . لأنرت لك مخازيَ لا يغسلها الماء . . وإن كنتَ ابن سمية فأنت ابن جماعة .

أما زعمك أنك تخطفني بأضعف ريش ، فهل سمعت بذئب أكله خروف .

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمه وأحزنه وبعث الى المغيرة بن شعبه فخلا به .

قال المغيرة . . إن زياداً رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة ، وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل وبك أوثق ، فاكتب اليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية . . الى زياد بن أبي سفيان . . حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي . . حتى كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي . وشتان ما بيني وبينك . أطلب بدم ابن العاص وأنت تقاتلني .

فرحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس فلما رآه زياد قدمه وأدناه ولطف به فرفع اليه الكتاب . فجعل يتأمله ويضحك .

ثم جمع الناس . . وصعد المنبر . . وقال : لقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان . . فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون .

وكتب كتاب الجواب الى معاوية :

الحمد لله الذي عرفك الحق وردك الى الصلة . ولست ممن يجهل معروفاً ولا يغفل حسباً . . .

وروي المدائني قال : لما أراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه من الشام جمع من الناس وصعد المنبر وأصعد زياداً معه .

ثم قال : إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد ، فمن كان عنده شهادة فليقم بها . . فقام أبو مريم السلوى وكان خماراً في الجاهلية فقال :

إن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً ، فلما أكل قال : يا أبا مريم أصب لي بغياً . فخرجت فأتيت بسمية . . تجر ذيلها فدخلت معه .

وروي شيخنا أبو عثمان : أن زياداً مر وهو والي البصرة بأبي العريان العدوى وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة شديدة . فقال ابو العريان ما هذه الجلبة ؟ قالوا : زياد ابن أبي سفيان . قال : والله ما ترك ابو سفيان الا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً ، فمن أين جاء زياد : فبلغ الكلام زياداً .

وقال قائل له : لو سددت عنك فم هذا الكلب فأرسل اليه بمائتي دينار ! فقال له رسول زياد : إن إبن عمك زياداً الأمير قد أرسل اليك مائتي دينار . . ثم مر به زياد من الغد في موكبه . فوقف عليه وسلم . وبكى أبو العريان . فقال ما يبكيك ؟ قال : عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد . فبلغ ذلك معاوية فكتب الى أبي العريان :

ما ألبثتك الدنانير التي بعثت ... أن لونتك أبا العريان ألوانا
أمسى إليك زياد في أرومته ... نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
لله در زياد لو تعجلها ... كانت له دون ما يخشاه قربانا

فلما قرىء كتاب معاوية على أبي العريان قال : أكتب جوابه يا غلام :

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها ... قد كدت يا ابن أبي سفيان تنسانا
أما زياد فقد صحت مناسبه ... عندي فلا أبتغي في الحق بهتاناً
من يسد خيراً يصبه حين يفعله ... أو يسد شراً يصبه حيثما كانا[1]

---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٤ / ٦٨ ـ ٧٠ .

وقد تم ذلك سنة ٥٦ هـ أي قبل أن ينتصف القرن [الأول] على وفاة النبي ورحم الله الحسن البصري فقد كان يقول فيما يروي الطبري : « أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله :

الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجر بن عدي »[1] .

---

(١) الدكتور طه حسين « الفتنة الكبرى ، علي وبنوه » ص ٣٤٨ .

(٤)
أقواله المأثورة

١ ـ ذكر ابن الأثير [١] :

لما مرض معاوية مرضه الذي مات فيه دعا ابنه يزيد فقال : يا بني اني كفيتك الشد والترحال ، ووطآت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحد .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقدته العبادة . فإذا لم يبق أحد غيره بايعك .

وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه . .

وأما ابن أبي بكر فإنه رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، وليس همه إلا في النساء واللهو .

وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير .

فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً »[٢] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) يذكر بعض الرواة ـ ومنهم ابن الأثير نفسه ـ أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية . وقيل : إن يزيد كان غائباً من مرض أبيه وموته ، وإن معاوية أحضر الضحاك بن قيس ، ومسلم بن عقبة المري فأمرهما أن يؤديا عنه رسالته التي ذكرناها في المتن الى يزيد ابنه .

٢ ـ قال معاوية لما حضرته الوفاة : إن رسول الله كساني قميصاً فحفظته ، وقلم أظفاره فأخذت قلامة فجعلتها في قارورة . فإذا مت فألبسوني ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي فعسى الله أن يرحمني ببركتها[١] .

٣ ـ ذكر الطبري بأسانيده المختلفة عن أبي مسعدة الفزاري قال .

قال لي معاوية : يا ابن مسعدة رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده .

وأما ابن حنتمة ـ أي عمر ـ فأرادته الدنيا ولم يردها .

وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه ، وأما نحن فتمرغنا فيها [٢] .

٤ ـ أغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقيل له : اتحلم عن هذا ؟

فقال : إني لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا[٣] .

٥ ـ لام معاوية[٤] عبد الله بن جعفر على الغناء[٥] . فدخل يوماً ومعه بديح ومعاوية واضع رجلا على رجل . فقال عبد الله لبديح أيها ! فتغنى فحرك معاوية رجليه وقال : إن الكريم طروب .

٦ ـ قام معاوية خطيباً ـ بعد أن دس السم للأشتر ـ فقال :

أما بعد فإنه كانت لعلى يمينان فقطعت احداهما بصفين وقطعت الأخرى اليوم [٦] .

٧ ـ سأل معاوية عمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قط الا خرجت منه ، قال معاوية : لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ٢٦٠ . ومما يلفت النظر حقاً أن يحتفظ معاوية بقلامة ظفر النبي ولا يحافظ على سنته !!

(٢) الطبري : « تاريخ الأمم والملوك » ٦ / ١٨٦ . وفي رواية أخرى « أما أنا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لي » .

(٣) الطبري ، « تاريخ الأمم والملوك » ٦ / ١٨٧ .

(٤) المصدر نفسه ٦ / ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٥) هذا الحديث مخالف لما عليه المؤرخون من قداسة عبد الله بن جعفر لما ذكروه من جلالة قدره وتوثيقه . راجع تاريخ الطبري ، والاستيعاب لابن عبد البر وأسد الغابة لابن الأثير وغيرها . « الناشر » .

(٦) العقاد « معاوية بن أبي سفيان » ص ٧٤ . ويقصد بذلك عمار بن ياسر والأشتر .

الخروج منه[1] ـ

٨ ـ لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت :

إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها[2] .

٩ ـ جاء في الطبري أن معاوية كان يأكل في اليوم سبع مرات ويقول : والله ما أشبع وإنما أعيا [3] .

١٠ ـ روى الواقدي أن عمرو بن العاص دخل يوماً على معاوية بعد ما كبر . فقال له : ما بقي مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا إرب لي فيهن .

وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهي بها جلدي ، فما أدري أيها ألين .

وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه الذ وأطيب .

فما شيء ألذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ومن أن أنظر إلى بنيّ وبني بنيّ يدورن حولي[4] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٢ .

(٥)
معاوية في الميزان

كل شيء في الحياة الإنسانية هين إذا هان الخلل في موازين الإنسانية . وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخلل إلى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض . فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الحقيقة أو على الفضيلة . . . لأنه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة ، ولأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولا يقدر على التماس المعذرة لها في نقيصتها أو في طبيعتها التي لافكاك منها .

وليس أبغض الى الإنسان من احتقاره لنفسه ؛ وليس أحب اليه من اعتذاره لها عن حقيقتها . إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفي به الاضطرار الى الإقرار بسبق السابقين له ، وارتفاع المرتفعين عليه .

وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعي لنفسه تعلة يسمو بها على اهل المعرفة .

وإنه ليعترف بالعجز إذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خداع النفس .

وإنه ليعترف بالرذيلة إذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى

وإنه ليعترف بالرذيلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التي يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة . . . ويكفي أن ينسب الى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العمل العظيم المثالي . . . ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين :

أحدهما غريب يصغره في نظر نفسه ، والآخر مألوف يطرقه كل يوم .

وإذا لم يرجح من أخبار فترة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان إلا الخبر الراجح عن لعن عليّ على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان .

فإن الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة الا أن معاوية كان يغدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافياً للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه .

ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون .

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام احمد بن حنبل أنه سأل أباه عن علي ومعاوية ؟ فقال :

أعلم أن علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له اعداؤ ه عيباً فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له[1] .

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين : أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة عليّ من الحجاز والعراق ، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها أكثر الأحايين . .

فكانت أعباء الخلافة كلها على عليّ ، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية ، مواتية له ، محيطة به فيما يريد . . وفيما لا يريد .

كان الناس مع علي ينظرون الى سنة الرسول .

وكان الناس مع معاوية ينظر الى هرقل وكسرى . . .

فكان المجتمع الإسلامي مجتمعين . . افترقا غاية افتراقهما في النزاع بين علي

---

(١) هذه الفقرة وما يليها مقتطفات من كتاب العقاد « معاوية بن أبي سفيان في الميزان » ص ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٢ - ١١٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ - ١٩١ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ .

ومعاوية .

فكان على يكبح تياراً جارفاً لا يحلة في السير معه ولا في دفعه .

وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاهم بغير مدافعة وبغير حيرة . . .

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء أنه أصبح كفؤاً للشجاعة أو راجحاً عليها في موازين الصفات الإجتماعية .

فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء ـ وفوق العزاء ـ بشهرة الدهاء .

فالدهاء عندهم مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن . . .

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة غير صريحة يبلغ بها صاحبها مأربه .

وأبرع ما برع فيه معاوية من ألوان الدهاء إلقاءِ الشبهة بين خصومه .

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه في نفس الإمام .

وحيلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير إليها في مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل الخفية التي توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه . .

ومات الحسن ، ومات مالك بن الأشتر . . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعاً بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين أنها حيلة مدبرة ، وأن صاحبها من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو : معاوية .

لقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة .

فإذا لمح الحيوان من خصمه أنه يجفل منه أخذ في الهجوم .

وإذا عدا خصمه أمامه أخذ في العدو وراءه .

وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى في صرعه وافتراسه .

وقد دخل حجر بن عدي على معاوية ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر

لواجب الحلم والأناة ، فلما دخل حجر محييا له بالإمارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات ، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف . ونظن أن هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر .

وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع في طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس . . . واحتاج أن يقول مرة كما جاء في الطبري مستندا الى سعيد بن سويد : ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . . . ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم .

ثم نشبت الفتنة الوبيلة في خلافة عثمان ، ومعاوية بمعزل منها .

وقتل عثمان فاتخذ مقتله ذريعة للخروج على الإمام وإنكار بيعته .

وأسرف كل الإسراف في التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة .

فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده في كل حديث وفي كل خطاب وفي كل جواب . وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها وأغفلها بعد ذلك فلم يعد إليها قط لا ليعتذر إلى قرابة الخليفة المقتول من سكوته وإغفاله .

وكان معاوية عظيم العناية بأطايب الخوان ، كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب في آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه .

وقد ألجأته الحاجة الى انفاق المال في أبهة الملك والإغداق على الأعوان والخدم الى إرهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع أصحاب الجمية .

فكان من الولاة من نطيعه ومنهم من يجيبه معترضاً .

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة : والي خراسان الذي كتب إليه زياد يأمره ألا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة ، فكتب الوالي الى زياد .

بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل

كتاب أمير المؤمنين . . وليس أضل ضلالا ولا أجهل جهلا من المؤرخين الذين سموًا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة .

فلم يشاركه أحد فيها لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها .

إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهي التفرقة بين الجميع .

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه ببعضهم . . كضرب الشيعة بالخوارج . والعرب بالموالي . . واليمانية بالقيسية . . بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفيانيين .

وواضح من هذه التفرقة أنه كان يكف يده عن البطش والنكاية في معاملتهم جيمعاً . . . لأنه كان يغري بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الإيقاع بهم ، ولكنه ـ على هذا كله ـ كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها .

وكان يختار لها من الولاة من يعلم أنه يفرط فيها ولا يقتصد في شرورها وبقاتها .

ولا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم ولا أن ينكل بالقريب قصاصاً من البعيد .

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قضاها في نعمته وثرائه ولا نقول في صولته وعزه فقد كان يذل لكل ذي بيعة منشودة ذلا لم يصبر من يايعوه على مثله . أما تبعته العامة في أمر الملك فأمر جسيم لا تعد له جسامة عمل في عصره لأنه نكص بالملك خطوات . . . ولو أنه أنشأ هذا الملك والناس لا يعرفون غير لخف نصيبه من اللوم . . . غير أن الناس عرفوا في زمانه فارقاً شاسعاً بين ولي الأمر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية . . . وبين الحكم الذي يجري على سنة المساومة ويملي لصاحبه في البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمغالاة بصغائر الحياة .

* * *

(٦)
ما ينطبق على تصرفاته من القرآن

سورة آل عمران : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

٣ : ٢١ ، ٢٢

سورة يونس : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

١٠ : ٧ ، ٨

مصادر البحث

١ ـ القرآن .

٢ ـ ابن هشام ، سيرة النبي محمد ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، ١٩٣٧ .

٣ ـ البخاري ، صحيح البخاري، دار الطباعة العامرة، اسطنبول، ١٣١٥هـ .

٤ ـ مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، دار الكتب العربية الكبرى بمصر .

٥ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، القاهرة ، ١٣٠٨ هـ .

٦ ـ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة مصطفى محمد بمصر ، ١٩٣٩.

٧ ـ البلاذري، فتوح البلدان، المطبعة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٣٢.

٨ ـ البلاذري ، أنساب الأشراف ، المطبعة العربية في القدس ١٩٣١ .

٩ ـ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك المطبعة الحسينية بمصر .

١٠ـ المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الرجاء للطبع والنشر بمصر .

١١ ـ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية بمصر .

١٢ ـ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، دار الكتب العربية الكبرى بمصر .

١٣ ـ ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مطبعة النهضة بمصر ١٩٣٦ م .

١٤ ـ المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار الطباعة المصرية بالقاهرة ١٢٧٠ هـ .

١٥ ـ الدينوري ، الأخبار الطوال ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٠ هـ .

١٦ ـ العقاد ، عبقرية الإمام ، مطبعة المعارف بمصر .

١٧ ـ عبد الفتاح عبد المقصود ، الإمام علي بن أبي طالب ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة .

١٨ ـ الدكتور طه حسين، الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان، دار الطباعة بمصر.

١٩ ـ الدكتور طه حسين ، الفتنة الكبرى على وبنوه ، دار الطباعة بمصر .

٢٠ ـ العقاد ، معاوية بن أبي سفيان ، كتاب الهلال ، العدد ٥٨، ١٩٥٦م

فهرس

الموضوعات والمباحث المهمة — صفحة

التقديم بقلم الأستاذ عبد الهادي مسعود ٥
مقدمة المؤلف ، وفيها نتائج البحث وملخصه ١٧
القسم الأول ـ قصة الخلافة ١١ ـ ٣٥ هـ ١٥
١ ـ الفصل الأول : مسألة الوصية ١٩
٢ ـ الفصل الثاني : حديث السقيفة
(أ) أبو بكر الصديق ١١ ـ ١٣ هـ ٤١
(ب) عمر بن الخطاب ١٣ ـ ٢٣ هـ ٦٣
(ج) عثمان بن عفان ٢٣ ـ ٣٥ هـ ٨٩
٣ ـ الفصل الثالث : خلافة الإمام ٣٥ ـ ٤٠ هـ ١٣١
القسم الثاني ـ قميص عثمان ١٣٥
١ ـ الفصل الرابع : الناكثون ـ أصحاب الجمل ٣٦ هـ ١٣٩
٢ ـ الفصل الخامس : القاسطون ـ أصحاب صفين ٣٧ هـ ١٥٩
٣ ـ الفصل السادس : التحكيم ، المارقون ، ومصرع الإمام ٨ ـ ٤٠ هـ ١٧١
القسم الثالث ـ بين علي ومعاوية ١٨٧
١ ـ الفصل السابع : مقتطفات من سيرة الإمام ١٩٠
١ ـ فلسفة الحكم ١٩١
٢ ـ حرصه على بيت المال ١٩٥
٣ ـ تواضعه وعدله ١٩٧
٤ ـ تحليل لسياسته العامة ١٩٩
٥ ـ بعض أقواله المأثورة ٢٠٣
٦ ـ ما ينطبق عليه من آي الذكر الحكيم ٢٠٩
٢ ـ الفصل الثامن : نماذج من تصرفات معاوية ٢١١
١ ـ مأساة حجر بن عدي ٢١٣
٢ ـ نماذج أخرى من غدر معاوية ٢١٩
٣ ـ إلحاقه زياد بن أبيه بأبي سفيان ٢٢١
٤ ـ أقواله المأثورة ٢٢٧
٥ ـ معاوية في الميزان ٢٣١
٦ ـ ما ينطبق على تصرفاته من القرآن ٢٣٧
مصادر البحث ٢٣٩